الصديق حاج أحمد

مملكة الزيوان

رواية

فيسيرا
Editions Vescera

الصديق حاج أحمد(الزيواني)

مملكة الزيوان

رواية

الإهداء

إلى كل الذين ظلمتهم الجغرافيا بتضاريسها العبثية المقرفة...؛ لكنهم آمنوا بنبوّة الرمل....

قفل ضاع مفتاحه في كرناف النخل...

كم لك في خضرتك، وزيوانك، نفع ياعرجون، معظم الأشياء لها في خضرتها حظوة وسلوان، ولها في يبسها نكر وهجران؛ إلا أنتَ ياعرجون، وزيوانك، وأمكما النخلة...

تصوّر نفسك أمام مدخل قصبة القصر الطيني...

هناك خارج القصر الزيواني، توجد حفرة الرَّابْطَة، التي تخرج إليها المرأة المتوفّى عنها زوجها، بعد انقضاء عِدّتها. هي حفرة شبه عميقة من عمقها الأفقي، تشبه تماماً مدخل كهف أو مغارة مخيفة. المكان يفرض على المار كيفما كان، أن يلبس عباءة الرّهبة المختلطة بالخوف، كتلك التي تعطى عادةً، للأماكن التي يُعتقد أنها مسكونة من الجان والعفاريت، ولا سيما وقت القيلولة صيفاً، أو آخر أيام الشهر ليلاً.

بيد أن ما أعطى للمكان وحشة حقاً، هو تلك الثيّاب البالية المرمية والمحروقة بأشعة الشمس، والتمائم الكتّانية و الجلدية العتيقة، وكذا الأقداح الطينية القديمة المكسّرة والمتناثرة، بين تلك الثيّاب البالية والتمائم المحجّبة، عند مدخل تلك الحفرة، للرَّابْطات اللاّئي فسخن ثياب عدّتهن في السنين الخوالي من تاريخ القصر.

كان سكان القصر في سالف عهدهم وحاضرهم أيضاً، وفي واقعهم وخيالهم، يروون عن المكان روايات مرعبة، ما حدا بالكثير منهم، إنْ لم أقل الكلّ، أن يتفادوا المرور بالمكان في تلك الأوقات المحظورة؛ غير أنّ رغبة ذلك الدرويش الزيواني الحالم باكتشاف تلك التحولات الاجتماعية العميقة التي مرّت بها مملكتهم، خلال ثلاثين سنة، كان يدفعه دفعاً لتكسير طابو رعشة المكان، دون أن يراعي أو يحسب للمجازفة حساباً، أو يعطيها ما تستحق من العناية والتريّث.

والحق يذكر إن المرابط ظلّ التردّد يركبه كثيراً في بداية أمره غير ما مرّة، غير أن إلحاح الطالب أيْقشَ[1] عليه، في ضرورة زيارة المكان زمن القيلولة صيفاً، سوف يمكّنه من مراده.

ذات يوم من أيام الصيف الحارقة، خطر بباله في أوقات جنونه وعبثه، أن يذهب لذلك المكان، الذي نعته له الطالب أيْقشَ، عساه يحقق غايته ويبلغ مُناه. وبينما كانت الشمس قد تدحرجت من كَدْيَتِها[2] العليا نحو السفلى، حتى لا يبقى بينها وبين

---

[1]- في محلية لهجة توات، تطلق لفظة أيقش للدلالة على الطالب المشعوذ، وأصلها أيقغ، فقلبت الغين شيناً للتخفيف، وهي جملة الجمل الأبجدي الصغير في حمّارة الحساب، فالألف منها للآحاد، والياء منها للعشرات، والقاف منها للمئات، والغين منها للآلاف.

[2]- في زيوانية أهل توات، تطلق الكدية، على الهضبة المرتفعة.

أرض القصر الوَسْطاني، سوى قامتين بقامة العَرَّاف[3] المعتدلة، ما دعاها لأن تربط جميع أهل القصر من إنسهم و دوابهم، عن الحركة طوعاً أو كرهاً، وبالتالي الاحتماء ببيوتهم الطينية بالقصبات، و كذا دوابهم بمواشيرهم[4] في السباخ.

قيلولتئذٍ خرج الدرويش المرابط لحفرة الرَّابْطَة، سالكاً ذلك الزّقاق الذي كانت تعود فيه من حفرتها إلى القصر، وقد أوصاه الطالب أيْقشَ؛ بل وأكّد عليه أن يخرج منه، و في العودة أن يعود بذلك الزّقاق المخالف، الذي كانت تخرج فيه من القصر إلى حفرتها، كما ذكر له، من أنّه عند اقترابه للمكان، عليه أن لا يتفاجأ بحدوث زوبعة رملية دائرية.

نفّذ الدرويش توصيات الطالب أيْقشَ بحذافيرها، وخرج متلمّساً في عوالم حفرة الرَّابْطَة الخفيّة حلاًّ لحلمه وتحقيقاً لعشقه، والذي يخالف أحلام أنداده من سكان القصر، الذين كانوا يرون في حلم ميراث عراجين وزيوان نخل السباخ، وعشق قَواريط[5] ماء الفَقّارات[6]، مغنمة لا تضاهيها مغنمة أخرى.

حين اقترابه من المكان، لم يتفاجأ على أيّة حال بزوبعة رملية دائرية مُوَجْوِجَة، كسّرت صمت المكان، وزادته رهبة إلى رهبته الأصلية، وقد ازداد يقينه بالطالب أيْقشَ ساعتها، لحصول ما قد ذكر له آنفاً، من أنّه قُرب وصوله للحفرة، سوف يلاحظ حدوث تلك الزوبعة الرملية الدائرية، والتي كثيراً ما سمع عنها في أساطير عمّته نفوسة، و أسْطَرَة مخيال القصر الجمعي، أنّها من أمارات الجان والعفاريت.

المهم إن صداقة الشمس الحارقة مع سطوة المكان عليه، قد جعلتاه يتصبب عرقاً، فمسح العرق بطرف عمامته الكَاكِيَّة[7]، ما شكّل العرق منه أودية من على سحنة جبهته ورقبته ومباطن إبطه، ودنا دنواً حذراً من فم الحفرة، كان الرّمل الأصفر المفترش لفم الحفرة، يرسم تضاريس أرجل وأثار زحف للحشرات التي غدتْ أو راحتْ بفم الحفرة، بما فيها العقارب والخنافس والفئران والقطط والثعابين، ما أوثقه يقيناً، من عدم وجود داخل للحفرة أو خارج منها، ولو لزمن معين.

---

[3]- هو الرجل الخبير بالقصر، وهو بمثابة قاضي الخبرة، بالنسبة لجماعة القصر.

[4]- مفردها ميشار، وهي مخازن طينية بعيدة عن القصر، قرب السباخ.

[5]- وجدة من وحدات قياس ماء الفقاقير.

[6]- مفردها فقّارة، وهي آبار متسلسلة عميقة وبعيدة، تقع عادة شرق قصور خط جريد توات، وتبدأ في نقصان عمقها، كلّما اقتربت من القصر، حتى تستوي مع وجه الأرض، وهي من الاختراعات العجيبة لأهل مملكة الزيوان، ومفاخرهم العقلية.

[7]- كتان أخضر.

وقف مدّة غير طويلة قبالة فم الحفرة، وسأل نفسه، وقال:

أن تكون درويشاً بأرض الزيوان فذلك ممكن؛ لأن سادتنا الصوفية عندهم، قد يعطونك مرتبةً رفيعةً من مراتب السّالك والمريد في حضرتهم. أمَا والحال أن تكون حالماً بأخبار الزيوان، فحسبك أن هذا أمرٌ تتصرم دونه الأعمار. بعدها التفت ثانية إلى عرقه المتصبب، ومسحه كما فعل في الأول، وتابع حديث نفسه، وقال:

إن الأمر في كل الحالات ليس سهلاً، ولا يخلو من خطب جلل، ولذلك لابد له أن يترجّل، ويعضّ بأسنانه على لسانه، ويطلِّق الخوف ولو للحظات، ليكتشف في مملكة الجان والعفاريت بحفرة الرَّابْطَة، ما هو حالم به، وعاشق له، في آن.

وما إن بلغ نهاية ما وقر في قلبه، وحدّث به نفسه، حتى سمع صوتاً نسوياً لطيفاً خفيفاً يناديه من الداخل، أنِ ادخلْ، فولجَ، ولم يسمِّ، بل تعمّد فعل ذلك؛ لأن الطالب أيْقشَ قد ذكّره كذلك بعدم التسمية حينها؛ لأن ذلك لا محالة سوف يطرد الجن، فدخل غير مسمٍّ. فإذا هو أمام اِمرأة باهرة الجمال، لا عين رأتْ ولا خطر ببال أحد، لم يرَ في عالمه الإنسي الزيواني، اِمرأة فاتنة مثلها، ومهما حاول أو اجتهد في وصف جمالها فلن يفلح بكل تأكيد، وقد سنحت له الفرصة لأن يرى قراءةً، ما شاء الله له أن يرى، من أوصاف الواصفين للجمال وفنون أذواقه، بمخطوطات خزائن مملكتهم الزيوانية بقصور تَمَنْطِيطْ[8]، وتِلِيْلاَنْ[9]، ومَلُوْكَة[10]، وزاوية كُنْتَة[11]، وزَاويَّة الشيخ المَغِيلي[12]، وأنْزَجْمِير[13]، وأقَبْلي[14]، وأوْلاَدْ سَعِيد[15]، والمَطَارِفَة[16]؛ بل قد سار به الحال، حتى بلاد السودان الغربي[17]، فبلغ حواضرها العلمية، كـ تِمْبَكْتُو[18]، وغَاوْ[19]،

---

[8]- مدينة تواتية قديمة، سكنها اليهود، كانت بها سوق عامرة بالسلع، يتبضع منها المارون بالقوافل، نحو الشمال أو الجنوب، فصّل ذلك الشيخ بابا حيدة صاحب كتاب القول البسيط في أخبار تمنطيط.

[9]- قصر شمال مدينة أدرار، أسسها سيدي أحمد بن يوسف، كانت خلال القرن18م، محج العلم بتوات.

[10]- قصر يقع غرب مدينة أدرار، اشتهرت بعلمائها البلباليين.

[11]- عاصمة عرش أولاد السي حمو بلحاج، به خزانة كنتة الرقاقدة، وخزائن الشرفاء.

[12]- من أعلام القرن الخامس عشر الميلادي، عالم بارز، وخطيب مفوّه، له مناظرة مشهورة مع السيوطي جول المنطق، نهض لليهود بتمنطيط، بعدما خالفوا أحكام أهل الذمة، له كتب كثيرة في فنون شتى، ولا سيما في مجال السياسة الشرعية، قام برحلة للسودان الغربي، فطلب منه أمير إمارة سنغاي، وسلطان سلطنة الهوصا، أن ينظرّا لهما تنطيراً يصلح دولتهما، بما يتوافق وعلاقة الراعي بالرعية حسب الشريعة المحمدية، توفى سنة 909هـ بتوات، وضريحه مشهور بزاويته هناك.

[13]- قصر يقع جنوب توات الحنة، عرف حركة علمية زاهرة.

[14]- قصور تقع بتديكلت، عرفت حركة علمية للكنتيين بزاوية أبي نعامة، وآل فلان بساهل.

[15]- قصر يقع بقورارة، من أشهر أسره العلمية، أولاد القاضي، المعروفة بالجوزي.

[16]- قصر يقع بقورارة الجنوبية، اشتهرت به عائلة أولاد بن عبد الكبير.

[17]- إفريقيا الغربية.

[18]- حاضرة علمية شهيرة بمالي.

[19]- عاصمة دولة سنغاي المالية قديماً.

وكَانُو[20]، وأَقَادَزْ[21]، وخالط العائلات العلمية هناك، كـ آل كُنْتَة، وآل السُّوق، وآل فُلاَّن، واطلع على مخطوطات مخالب الجمال و نَارِقْ[22] الحُسن التي تخلب لبَّ الرجال من فتنة النساء، بمخطوطات خزائن خيَّامهم وحِلاَّتهم . وما أكثرها . وشاهد هناك المرأة الطارقية الجميلة بكل ما أوتيت من سحر جذَّاب وفتَّان؛ لكنه لم يقف كالذي رأى، هيهات...

وسألته عن حال أهل الزيوان، وعن عالمه الإنسي الزيواني، وقالت له، إنّها هي مَرُّوشَة الساحرة الجميلة، التي عشقها وفُتن بها الشلاَّلي[23]، وتغنّى بها كثيراً في غناء شعره و طبله، ونعتها فيه بأوصاف تُذكر وتُحفظ عند العامة والخاصة، بعثها لها مع مرْسُوله زَرْقْ الرِّيْشْ[24]، وزَرْقْ الجَنْحَاني[25]، وأضحت قصته أكبر قصة حب وعشق ترويها الأجيال بمملكتكم الزيوانية. وقالت له، إنها أحبّت في نفسها، أن تغني له بيتاً، من مطلع تلك الأغنية الشهيرة عندهم في سماء ذاكرتهم الشعبية، التي غنّاها الشلاَّلي في حبها، وغنّت مَرُّوشَة لقول الشلاَّلي، وهي تضع يدها على خدّها الأيمن، وترسم بالقول مستفتحة **(داني داني يا داني):**

زَرْقْ الرِّيْشْ إِيْلاَ أَغْدِيتْ[26] للعَاشْقِينْ * سَالْ أَعْلَى مَرُّوشَة أَجْبَالْها دَارْقِينْ[27]

بعدها قالت له أن قضيّته تفوقها، ولا تعلم عنها إلا عنوانها، وأن تفاصيلها في جداولها، هي عند شيخ الجان، وقاضي قضاتها، المسمّى الشيخ شَمْهَرونْ[28]، وهو غير موجود حالياً.

وطلبت منه أن ينتظرها لتبلِّغه طلبه ومراده، فاختفت عنه فجأة، لا يعلم لاختفائها شيئاً، سوى وكأن الأرض بلعتها، وقد كادت تأملاته لروعة سحرها و حسن جمالها إبّان اختفائها، تنسيه ملاحظاته على تلك الرسومات والرموز، التي كانت منقوشة أمامه بجدران تلك الحفرة من أرض التَّافْزَة[29]، وقد كانت في معظمها جداول وأوقاف،

---

[20]- العاصمة العلمية لدولة الهوصة(نيجيريا) قديماً.
[21]- حاضرة علمية تقع شمال دولة النيجر.
[22]- القاف هنا تنطق جيماً قاهرية، ومعناه في لهجة توات الطلعة النائرة المسرارة.
[23]- يُنسب لقصر الشلالة، جاء إلى توات، وأنشد بها غناء شعرياً، يسمى في لهجتهم بالطبل، يغلب على شعره الغنائي الغزل، منها قصة مروشة، والخادم، وعيشة.
[24]- حمام العشاق، الذي يجمل رسائل العشق، بين الحبيب والمحبوب.
[25]- الحمام كذلك.
[26]- ذهبت.
[27]- مختفين.
[28]- ويطلق عليه في بعض الجهات شمهروش.
[29]- أرض صلبة حرشاء، منها ما هو أصفر فاتح، ومنها ما هو أحمر غير داكن، كدم البكر ساعة افتضاضها.

منها ما هو خماسي، ومنها ما هو سداسي، كتبت بداخلها حروف أبجدية ملتصقة من حمَّارة الحساب، منها ما كان لصقه ثنائياً، ومنها ما كان ثلاثياً، أو رباعياً. كما شاهد بتلك الجداول والأوقاف، مقدمات ومؤخرات، كانت ترتبط ببعضها في تلك الجداول برموز وأسهم. من تلك الجداول ما كتب تحته هذا جدول كسر ناري، ومنها ما كتب تحته هذا جدول روح هوائي، ومنها ما كتب تحته هذا جدول مزج ترابي.

بينما هو تائه مشدود لتلك النقوش والحفريات المحفورة بجدران و سقف الحفرة التَّافزية، عادت مَرُّوشَة السّاحرة، وأخبرته بأن الشيخ شَمْهَرونْ، قد استجاب لطلبه، وأنه سوف يأتي بعد قليل.

وبينما هو يترقب، إذْ طلع عليه شيخ لم يتبيّن ملامحه جيّداً كما ينبغي، لكون البَخَّار الذي كان يحمله في يده اليمنى، كان يتصاعد منه دخان كثيف، حجب عنه ما يمكن رؤيته من ملامحه على وجه الدّقة، كلّ الذي يمكن أن يقرّبه من وصفه تقريباً غير دقيقٍ، أنّه شيخ مهاب وكفى. كما كان يحمل في يده اليسرى تمائم كتّانٍ، بان له بعد جهد جهيد من أمر ذلك الدّخان، أن البعض منها كان أبيض، والآخر أحمر، والأخير وردي، فجلس ذلك الشيخ المهاب على دكانة وثيرة، منجورة في التَّافْزَة، وبعد تمتمات وهمهمات كثيرة، سمعها ولم يعقلها، رفع إليه رأسه، وقال له بعد أن عرف حاجته، واِسمه واِسم أمه:

من حقّك أيها الزيواني، أن تحلم فوق الأرض في عالمك الإنسي، بأخبار مملكتكم الزيوانية، ولا سيما تلك القضية الجوهرية، التي قلبت القصر رأساً على عقب، و أضحى فيها الخمّاس ملاّكاً...

وإنّي وصفتُ لك حجابات مجدولة، هي لأغراض شتّى، فما كان أبيض، فكتبتُ لك فيه جدول روح هوائي، فاعمله بخوراً على زيوان يابس لعرجون أوّل نخلة تلتقيها في طريق عودتك لعالم قصرك الزيواني الإنسي، فإنّه يحقق حلمك لبلوغ غيوانك من أخبار زيوانك. وما كان وردي، فكتبتُ لك فيه جدول كسر ناري، فافعله رشاً على أثار أقدام أي فتاة تعشقها، فإنّه يوصلك لأهداب إزارها وقلبها. وما كان أحمر، فكتبتُ لك فيه جدول مزج ترابي، فافعله بخوراً و رشاً فوق وسادة قديمة، فإنّه يجلب لك المال والجاه، كما أنّه يصلح شراباً للمرأة التي تبتغي وضع الخرص في أنف

زوجها واقتياده، وقس على ذلك بخوراً للمجنون، وكذا الذي اختفى في حفرة الجان كالمَغْنُوم...

بداية مُستلفة من النهاية

مع حلول نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، أكون أنا والداعلي، قد اغتسلنا من طيننا حقاً، وجففنا عرق شبابنا، ليس بطرف عمامتنا الكَاكِيَّة من على سحنة جبهتنا، وإنما بمناديلنا الورقية، التي بدأت تفد علينا كوافد جديد، وبدأ شعرنا يستملح الشَّمْبوَانْ[30]، بعدما ألفَ مع ثيابنا الطين الأبيض سنيناً طويلة. كما أن لهاتنا غدتْ هي الأخرى تسترطبُ أكل رغيف الخبز الباريسي وسميد السَّمْبَاكْ[31]، بعدما تصادقت أعواماً مديدة مع خبز أنور[32] القمحي، وكسرة الشعير.

ليس هذا فحسب؛ بل حتى أمي التي غدتْ جدةً، قد اِسْتَليقَتْ هي الأخرى الصابون المعطّر، والعطر الباريسي المقلّد، و تخلّت عن بخارها الطيني، ودهن البريانتي[33]، وطقوس المشَّاطَة مولودة، التي كانت تمشط لها شعرها بالتراب والشحم، وكثيراً من عوائدها في الأفراح والأقراح.

حال أمي لا يبعد كثيراً، عن حال أختي مريْمو المسكينة، التي دفعتْ الثمن غالياً ببوارها وعدم تعليمها وفي الأخير عدم زواجها؛ لكونها طوبة، والطوبة لا ترث ما حُبِّسَ من الميراث، رغم جمالها الفاتن المختلط بين نطفة المرابطين وبويضة الشرفاء، وأصبح نهداها ينظران للأمام بسبب دعامتهما، بعد أن كانا يستحيان، ويستحسنان النّظر للأسفل، كما أنها أضحتْ تعرفُ معنى ذلك القلب المرسوم الذي يخترقه السّهم، بعد أن كانت تجهله، وبالتالي محلَّ تندُّر من أَمِيْزَار التواتية التونسية ابنة سيد الغيواني.

أما أَمْبارَك والد الدَّاعْلي وأمه قَامُو، فلم أعد أراهما في القصر، إلا كما يرى الزائر زائره، واستقلاً عنّا بصحبة ابنهما الدَّاعلي استقلالاً تاماً، وأصبح أمبارك ملاَّكاً لأرض استصلاحية، بعدما كان خمّاساً[34] عندنا، وتحسّن حاله بعد الثورة الزراعية خلال منتصف السبعينيات، ليترقّى بعدها نصّافاً لنا بالسبخة لَكْبيرة.

---

[30]- غسول الرأس.
[31]- اسم مختزل لشركة توزيع الدقيق الجزائرية.
[32]- التنور.
[33]- دهن نسائي كان موجوداً خلال الستينيات والسبعينيات والثمانينيات؛ لكنه قلّ خلال العشريتين الماضيتين.
[34]- يأخذ خمس الغلّة، مقابل عمله، والباقي لصاحب الأصل.

يمكن القول بالجملة أنهم كانوا تابعين لنا في كلّ شيء، أكلهم من أكلنا، ولباسهم من لباسنا، وبيتهم في بيتنا، لا فرق بيننا وبينهم إلا في اللّون، و الطاقة على العمل والتحمّل له من عدمه، وكذا ليونة وخشونة كفّ اليد وباطن الرِّجل؛ لكن رغم هذا والحقّ يُذكر أننا عِشنا مع بعضنا خلال تلك المدّة . خلا أيام الثورة الزراعية . عيشة أليفة وديعة، وعشرة مستلطفة لطيفة، راضٍ كل واحدٍ منا، بما أتاحه له الزّمان من الآخر في ذلك الوقت.

حتى نهيق الحمير في سماء القصر يا سادتي، قلّ وبشكلٍ لافت، فبعدما كان نهيقهم يشكلّ عندنا معزوفات صوتية غنائية، صباحية ومسائية وليلية، كان السامع لها بالقصر، يعرف من بعيد، نهقة الحمار من الجحش، ويفرّق بين نهقة الحمار الشارد، و الجائع، والعطشان، ونهقة الحمار المستوحش لغريزة أنثاه الحمارة. الآن يكاد القصر يخلو من الحمير، إذا ما استثنينا حمار أعمامي الكبار، الذين ظلّوا متمسكين بكل أعراف القصر، ولم يستسيغوا تبدّل القصر وتغيّره...

أَمِيْزَار عشقي الأوّل، جنوني الأبدي، و سرّ حكايتي، وطلسم نهايتي...

عمّتي نفوسة رحمها الله، لا أحسبُ أحداً غيري في هذه الرواية، قد لعب أدوراً نفسية طلائعية مثلها، آهٍ يا عمّتي نفوسة، لو كنتِ عشتِ إلى اليوم(1989)، كيف تقولين فيما كنتِ تعتقدين وتحسبين...

والدي كان تواجده بالقصر ناقصاً، لاشتغاله بالتجارة مع القوافل بين توات وبلاد السودان، هو على أيّة حال الآن جَدّاً، ولم يتأثر كثيراً بالتغيّر الذي أصاب القصر، وقلبه رأساً على عقب، دون ما وقع لسبخته الكبيرة. فقد سمح له السّفر، ومعرفة الناس ومخالطتهم بـ حَمُودْيَا رَقَّانْ في بداية عهده خلال عمله هناك بمصنع القنبلة الذريّة، وببلاد السودان في متوسط عهده ونهايته عندما كان يتجار مع القوافل التجارية، قلتُ، مكّنه ذلك من تقدير الأمور، بالرّغم من أنّه شبه جاهل.

ساعتها أكون كالأولى أنا والداعلي، قد خرجنا مرّة ثانية من غطسة سباحة أحلامنا المدفونة في بئر عميق من فَقّارتنا، وأصبحنا آباء ولنا أولاد، وأضحى والدي ووالده أَمْبَارَكْ ولد بُوجَمْعَة أجداداً ولهم أحفاد، يكون القصر عندها، قد لبِس ما أراد الله له أن يلبَس من فنون الحضارة، وأذاب معظم طينه، وانطمست أغلب عاداته وأعرافه،

وغارت عين فَقَّارته، وبدأ نجم نخيل سباخه في الأُفول، ما حدا بعرجونه الأخضر، أن يستحيل زيواناً يابساً.

عندها بالضبط تكون التحولات الاجتماعية بالقصر الوسطاني، قد شارفت على نهايتها، ولم تعد تضاريسها الجديدة بخافية على أحدٍ، إلا من كان غافلاً، أو عليه خِمارٌ فوق عينه، أو صممٌ بسمعه، أو غشاوةٌ على قلبه.

ثلاثون سنة يا سادتي، مرّت على قصرنا الوسطاني بتوات، اختزلتُ فيها سؤالاً واحداً، كيف كان قصري؟ وكيف أضحى؟

أما السؤال الثاني، أيهما كان أحسن، ماضيَّه أم حاضره؟

فالحكم لك عزيزي القارئ...

أمّا أنا، فقد ابتدعت لنفسي حلاًّ، عساني أخرج به من ضائقة كيف ذلك؟، أو من طائلة أين الجواب؟

فناديت أترابي من كانوا حولي بكل ألوان لوحات وجوههم، وتضاريس أعراقهم، بمن فيهم أبناء الشرفاء، والمرابطين، والشّعانبة، والزْوَى، والذين يدعونهم عندنا لَعْرَبْ، والبرامكة، أو من كان لونه يغلب عليه لون الزنوج كالداعلي، أو كمن كان مهجّناً، كأن يكون أبوه حُرّاً وأمه أَمَة كسيد الدُّوْلَة ولد الهُوصَاوي، أو كمن كان هجيناً كأن يكون أبوه تواتياً وأمه طارقية كـ ميني[35] ولد بَكَّةَ الطارقية، وغيرهم.

وافترشنا رملاً ناعماً أصفر، استرختْ له عظامنا، مع وجود الفراش الوثير عندنا، وطلبنا من أبنائنا الصغار، أن يتحلَّقوا حولنا، وتناولتُ رِقّاً مدبوغاً من أحد لَمْعَلْمينْ الملثّمين الموجودين بحي أَبْني وَأَسْكَتْ[36] غرب مدينة أدرار، وأمسكتُ قلماً من القصب و دواة، وقبل أن أشرعَ في الكتابة، نظرتُ يمنةً ويسرةً في وجوه الأبناء البريئة من الجيل الجديد، التي كانت تتحلَّقُ حولنا، وتفرّستُ فيها وجه طفلٍ هادئٍ عاقلٍ، وقلت له كاتباً مبسملاً ومصلياً:

هذا عهدنا وميثاقنا، إليكم أيها الجيل الجديد...

---

[35]- اسم ميني هو اختصار لمحمد الأمين عند أهل صحراء الطوارق، وجرت العادة عند الطوارق أن يربط اسم الابن بأمه، لا بأبيه..

[36]- يشاع أن الأوائل الذين سكنوا فيه من الطوارق خلال نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي، بنوا فيه دون شراء أو بمبلغ رمزي زهيد، ويسمى حالياً بالحي الغربي.

إن أرض الزيوان، هي قلادة ثقيلة في أعناقكم، لها من الحمولة التاريخية، والزخم الثقافي . المادي والشفوي . ما يجعلكم تفتخرون بطينها، وقصباتها، ورملها، ونخيلها، وفَقَاقيرها، فإن آباءكم وأجدادكم، قد عاشوا فيها بحسب ما أُتيح لهم من الزمان، ورضيّ كل واحد منهم بحسب ما قُدِّر له من الحاجة للآخر. فعيشوا فيها بحسب ما يُتاح لكم، وإيّاكم والالتفات كثيراً للوراء، فإنّه قد فات و مات.

وانظروا إلى حاضركم بما تستشرفون به مستقبلكم، فإن تيسّر لكم الأخذ بأسباب الحضارة، فخذوا منها بأكثر ما يفيدكم ولا يريبكم، على أن لا تنسلخوا عن تراثكم، وتنبهروا بكل وافدٍ برّاقٍ، وعيشوا فيها إخواناً متحابين، فتخندقوا فإن مصيركم واحد، ولا يضيركم أن يبقى كل واحد منكم على أصله، إنما هي نواميس الكون، كالطول والقصر، والنّحافة والبدانة، والصّحة والمرض، وقِسْ على ذلك في الأمور كلها.

وبلِّغوا الأمانة والميثاق والعهد، للجيل الذي يأتي بعدكم، فإن استحدثتْ عندهم ملمّات ولا ندري ما يكون الجديد غداً، فليعدِّلوا في ميثاقهم، بحسب ما يتساير ويتوافق مع الحادث المستحدث، وليبلِّغوها للجيل الذي يأتي بعدهم، وهكذا دواليك...

حافظوا على الأمانة، وصونوا الوديعة.

الزقاق الأول من قصبة القصر الطيني

حين تقلّصت عضلات رحم أمي، وقذفت بي إلى هذا الوجود المبكي يا سادتي، أوّل شيء حاولت القيام به، أنّي استهللتُ صارخاً، بيد أنّ ما يمكنني ذكره من أمر هذه اللّحظة الأولى، التي شممت فيها هواء أرض الزيوان، وتنسّم فيها وجهي رائحة الطين والتَّافْزَة، أنّي كدت أسبح في تلك الحفرة الرّملية، التي أعدّوها لمخاض والدتي، لولا عناية الله بأبناء القصور من أمثالي، وتشابك أيدي القابلات، الذي شكّل لوحة فنية بديعة، رسمت لي أوّل مهد، ترسو عنده قوارب لحمي الدافئ بحرارة رحم أمي، ومسالك ولادتها العسيرة.

كنُت أعرف أنّ أمي يصيبها الحبور والفرح، وتنتشي ببكائي وقت ولادتي؛ لأنّ ذلك سوف يُبقي تركة أبي من البساتين، والسِّباخ، وقواريط ماء الفقاقير في عتبته، وبالتّالي قطع الطريق على أعمامي، ولا سيما من جهة الأب، الذين كثيراً ما ابتهجوا وذبحوا الأضاحي، وتودّدوا بالقربان للأولياء والصّالحين، وأشاعوا في أرجاء القصر، مدى نجاعة جداول أيْقشَ، ابتهاجاً بفساد الحمل وطرحه قبل أوانه، أو بميلاد الطوبة عندنا؛ لكون تركتنا قد حُبِّست من الجدِّ الأكبر، للذكور دون الإناث.

ومما وُجد في نص تحبيس تركة جدّنا الأوّل المرابطي بقصرنا الطيني الوسطاني، بعد سطر البسملة، والحمدلة، والتصلية ما نصه:

"هذا عقد حبسٍ مؤبدٍ، ووقفٍ مخلّدٍ، عقده السيد البَرَكة كبير المرابطين بالقصر الوسطاني، على أولاده الذكور دون الإناث، ومن سيوجد من أحفادهم الذكور، إن قدّر الله تعالى، وذلك في كامل بساتينه، وسباخه، وأسهمه في الفَقَاقير، ثم على أعقابهم، وأعقاب أعقابهم، ما تناسلوا، وامتدت فروعهم، طبقة بعد طبقة، لا يدخل الولد مع وجود أبيه، وبعده ينزل منزلته، اتحدا أو تعددا، وهكذا في كلّ طبقة، فإن انقطع فرع ـ والعياذ بالله ـ رجع نصيبه على الباقين، وقد أذنَ لهم أن يقسّموه قسمة بتّ، كما أوقفَ لهم من المعاوضة بشروطها، ويستفيد من غلّته القائم بأعباء خدمته

من أهله، دون الضّاعن فيه، إلا أن يترك زوجة، أو ولداً يقوم مقامه، ومن غاب عن الحبس، أكثر من ستة شهور، لا نصيب له في الغلّة، إلا إذا ترك ذكراً، بالغاً، راشداً، عاقلاً. وقفاً مخلّداً قائماً على أصوله، محفوظاً بشروطه، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، فمن سعى في تبديله أو تغييره، الله حسيبه، و ولي الانتقام منه، وسيعلم الذين ظلموا، أيّ منقلب ينقلبون، و وكّل عليه سيدنا جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، وحملة العرش، والملائكة الكرام الكاتبين، وجميع عباد الله الصالجين. وقد شهد عليه بذلك، من أشهده به، في حال الصحة، وجواز التصرّف، مع تمام المعرفة، ومعرفة الأملاك المحبّسة، وانسحاب الملكية عليها، وسلامة ذمته من الشواغل. كُتب بتاريخ أواسط شعبان المنير، من عام 1283هـ، وبه عبيد ربه تعالى، المنكسر خاطره، لقلّة العمل والتقوى، وأفقرهم إلى رحمة ربه، الشيخ البكراوي التمنطيطي[37]، لطف الله به آمين.إهـ"

إلى هذه اللّحظة لا زال الحبل السّري يربطني بأمي، في ذلك الصباح الرّبيعي، من عام يُدعى عند أهل قصورنا بعام الجراد، حين أحسست بألم الموسى في يد عيشة مباركة بنت بَلَّة، وهو يقطع سرّتي، ويفصلني عن أمي، بعدما قضيت معها صداقة دامت تسعة أشهر. كانت تعكّر صفو ودّها، فترات من الوحم، واختلاط المزاج، في حُبِّ الأطعمة وكرهها. فأحياناً تشتهي أطعمة ليست في فصلها. وأحياناً ترغب في أشربة لا قِبل لنا بها.

---

[37]- نسبة لعائلة آل البكري، وهي من أقدم وأعرق العائلات العلمية والقضائية بتوات، ولا زال العلم فيهم، يرثونه حفيداً عن أب، وأباً عن جد، إلى يوم الناس هذا.

لقد كانت عيشة مباركة قابلة القصر وعرّافته، وقد ورثتْ هذه الصنعة عن أمّها. أحسبها اِمرأة رمادية، تخرج من عشّ الخمسين، وتدخل وكر الستين. كان شعرها المخضّب بالحنّاء، يرقد تحت خَنْتِها[38] الأصفر، وقد كانت تعاونها اِبنتها الكبرى النّايْرَة. التي امتدّت يداها تحت إبطي الأيمن والأيسر، حيث شعرت بأنّ كفّاً خشناً يلامس جلدي الرّخو. الذي لا زال يقطر منه زلال المخاض، ما أحدث حركة لزجة بين جسدي الرّخو وكفّها الخشن.

فرفعتني حتى استويت أمام رأسها، كان آخر هذا الرّفع، أن رفعتني فوق رأسها، فكنت مائلاً أوّل الأمر قليلاً، وقد زاد شدّها لي في هذه اللّحظة، رجلاي لأعلى ورأسي لأسفل، حتى استويت لها كما بغتْ. وأخذتْ والدتها سعفة نخل يابسة، وقوّستها بين أصابعها، فأزالت بها ما علق بجسدي من ذلك الزّلال.

وقد ترك مرور تلك السّعفة على جسدي احمراراً بيّناً، بدتْ تلك المنطقة كالبلح الأحمر، عند النّخلة المحمّرة للبلح، لا المصفّرة له، ساعة نهاية بَلَحِه ودخوله في البدر(النَّقْر)، الذي هو أوّل التّمر. ثم لحفتني عيشة أمباركة بقناع أمي الرّمادي البالي، الذي كان بقربها. وقبل أن تقوم أمي من حفرة مخاضها، قدّمتْ لها عيشة أمباركة سَفَّة[39] من التّمر اليابس المكسّر.

كانت والدتي . كان الله في عونها . في هذه اللّحظات الحاسمة، تتصببُ عرقاً، وتُرسل أنيناً خافتاً، وتنفّساً مُنَفْنَفاً، يصعد معه جسدها في شهيقه، وينخفض في زفيره، كنهاية وصول الصبيان، وقت السّبق في الحَرْكِ، لا يحسّ فيه الأوّل بالعياء والتّعب، إلا بعد أن يجتاز خط الوصول، إمّا ظافراً لتمرة، أو شاطراً لكسرة. وبالرّغم من هذا الإعياء والإغماء الذي كانت فيه، إلا إنّها والحقّ يذكر، كانت ترسل لي بين الحين والآخر، نظرات عطفٍ وإشفاقٍ، تنسى عندها أمرها، وهو بين أيدي القابلات، والجارات.

ما يمكنني قوله إلى غاية هنا، أن عينيّ لا زالتا مغمضتين، ولم تفتحا بعد، وتبصرا هذا الوجود، كل ما أذكره حينها، أنّي أرسل أصواتاً منخفضةً مختلطة بالبكاء، بين أصوات القابلات، والجارات، (أنَّغْ، أنَّغْ، أنَّغْ،...).

---

[38]- الخنت: غطاء للرأس كانت تستعمله المرأة التواتية.

[39]- تطلق على حفنة الكف من التمر اليابس المكسّر، ويجمعونها على سُفوف.

بعد هذا بدأت أمي تسترجع أنفاسها رويداً رويداً، وبإمكانها ومقدورها الآن، أن تقوم بي دون حاجة إلى المعاونات، اللاّئي بدأنَ في الانصراف. ولم تبقَ مع أمي، عدا خالتي لالَّة بَاتي، أخال طلعتها نائرة، كأنّ عليها نوَّارة الشرفاء، منبسطة، هادئة الطبع. وكذا عمّتي نفوسة، التي بدتْ لي بشرتها بَشْنِيَّة[40] اللّون، حين تكون البَشْنَة قد صُهِّدت على نار هادئة، حين يميل لونها نحو الاصفرار الدّاكن قليلاً، مفلّجة الأسنان الأمامية، قلقة، كثيرة المودّة مع إبليس عليه لعنة الله...، شكّاءة، بكّاءة، فضولية، سريعة الغضب، موسوسة في نهاية عهدها، عيناها غائرتان، لها خالٌ فوق أرنبة أنفها لجهة الشّمال، دنيوية على سباخنا.

والجارة مبيريكة زوجة سيد الحاج لعوج، و قامو بنت الحَمْدو، زوجة أمْبارَك ولد بوجَمْعَة. هي على أية حال، اِمرأة طائعة لأمر سيّدها وسيّدتها، محبوبةٌ مؤثرةٌ عندهما، لاهي بالهادئة؛ كخالتي لالَّة بَاتي، ولا هي بالقلقة؛ كعمّتي نفوسة، حنيّة اللّون كلون الحنّاء الرّطبة ساعة مكوثها بيد أمي مدّة زمن الأعراس والأفراح، حتى يكتحل ظاهر كفّها، معتدلة في باقي أوصافها.

لقد كانت عمّتي نفوسة شقيقة والدي، تخشى عليّ وعلى شقيقها، أن يذهب حظّنا من تلك السِّباخ، والقواريط، والفقاقير...، ما جعلها تتعب أمي كثيراً بهواجس وساوسها، لا سيّما أنّ أمي قد أصابتها عقدة وضع الحمل قبل أوانه، أو بالأحرى فساده. فالأول وضعته لحمة في شهره الثّالث، والثّاني وضعته ذكراً ميّتاً، دون أن يستهلّ صارخاً، ومن ذلك لم استغرب فرح أمي وابتهاجها لبكائي ساعة ولادتي.

ومن التبريرات التي قدّمتها عمّتي نفوسة لفساد حمل والدتي الأوّل والثّاني، أنّ زوجات أعمامي لأبي، قد سَحرنَ أمي، وكتبنَ لها الحجاب بخط الجدول، عند الطّالب أيْقشَ، وقد كان هذا التفسير يجد مجّاً واستهتاراً من أمي بعد حملها الأوّل؛ لكن مع تكرّر الأمر في الحمل الثّاني، ووفاة مولودها الذّكر دون استهلاله بالصّراخ، بدا وكأنّ والدتي تصدّق خرافات عمّتي، وقَرَف وساوسها.

كما كان من سواد طالعها، أنْ ولدتْ في الحمل الثّالث، أختي مريْمو، وبالرّغم من أنّ البنت غير مرحبٍ بها في قصورنا يومها، لكونها لا ترث ما حُبِّس من الميراث، إلا

---

[40]- نبات له حبوب بحجم حبات الرمل، تستعمل حبوبه غذاءً للإنسان، وتستعمل أوراقه وسيقانه علفاً للحيوان.

أنّ أمي سرّها ذلك على كل حال، لعاطفة أمومتها، وإن كانت تدرك تحسّر عمّتي، وتأسّف والدي، وتنكّي أعمامي، وابتهاج زوجاتهم، لافتراض حرماننا من الميراث. بينما راحت عمّتي نفوسة تضرب أخماسها في أسداسها، حسرةً على عدم مجيء الولد، فقالت لها أمي بلهجة تواتية قريبة من الفصحى، بعدما رأت جبهتها منقبضة:

اخْزِ الشيطان يا نفوسة

هذا أمر مولانا

هو الذي يخلق الحجرة والطوبة

فقاطعتها عمّتي نفوسة بلهجة حادّة، زادت من انقباض جبهتها وأساريرها، وأبرزت ما غار من عينيها، فترمّد اصفرار لونها البشني، وقالت لأمي، والرّغوة مكشكشة عند نهاية شفتيها:

نريد الحجرة، ولا نبغي الطوبة؛

لأن الحجرة.....، والطوبة لا.....

كانت أختي مريْمو مستملحة الطّلعة المرابطية، مستخولة الدّعة الشريفية، فيها شبهٌ كبيرٌ من أمي وخالتي، وقد اختلطت فيها بَشْنِيَّة أبي المرابطية مع النّوارة الشريفية لأمي، ما جعل لونها خليطاً بين ذلك، قلّ نظيره بقصرنا، لقلّة تزوّج المرابطين بالشّريفات. غير أنّها لم تحظَ بتلك العناية والحظوة، التي حظيتُ بها في مراحل طفولتي الأولى، بالرّغم من أنّها الولد البكر للبيت.

لقد انتظر أبي ووالدتي وعمّتي نفوسة قبل ميلادي، سبع سنوات...، وقد كانت هذه السّنوات، أثقل عليهم من حمل خمسين بعيراً ضامراً محمّلاً بالملح، بين تاوْدَني[41] وتَوات. حيث يقطع البعير المسافات الطّويلة من صحراء الطّوارق الملثمين، نزولاً في الوديان، وصعوداً في عرق الرّمل، وما أشدّ حمله وقتذاك، وهو محمّل بألواح الملح، حيث يغوص نعل رجليه فيه، أشدّ ما تغوص رِجل الإنسان الزيواني في الطين الأزَرْدابي[42].

---

[41]- بلدة من بلاد السودان الغربي، اشتهرت قديماً بتجارة الملح والرقيق.

[42]- أزرداب: لفظة محلية بربرية، تعني الطين الخاثر، الذي لا هو بالسائل، ولا باليابس.

ولما كنتُ في حجر أمي، ولم أفتح عينيّ، أخذت أمي قليلاً من دهن البَطَّة[43]، لونها كالوبر الأحمر الدّاكن عند الجمل المرتوي رضاعة في صغره. فوضعت باطن بنانة سبّابتها اليمني في ذلك الدّهن، وحركته حركة دائرية خفيفة مع باطن إبهامها، ومسدت به عينيّ مسداً لطيفاً، بعدها انفتحتا انفتاحاً منقبضاً ومرمّشاً، أفرز أربع دمعات في عيني اليمني، وثلاث دمعات في عيني اليسرى.

فاغتنمت والدتي فرصة غرغرة دموعي، علّها تلتصق بالكحل، ومدّت يدها إلى تَدارَة[44] حوائجها، المنسوجة من الزيوان بسعف النخيل المبتلّ بعد يبسه، فاستلّت منها مروداً أملس من الحنّاء، وبلّلت رأسه بريق فمها، وألقت به في جوف قنينة كحل صغيرة. قد تكون . والله أعلم . لقنينة دواء أسْبيرين قديمة، يكون قد هرَّبها والدي خلال الشتاء الماضي من المُودْيَا(حَمُودْيَا رَقَّان)، قبل أن يحترف التجارة بين توات و بلاد السودان[45]، حيث كان سكان مملكتنا الزيوانية قد ذهبوا هناك، للعمل بمصنع القنبلة الذّرية برقان، لدى الاستعمار الفرنسي، بعدما أرغمتهم مجاعة الجراد في هذا العام الكابس على ذلك.

ولعلّ أبي وأهل ناحيتنا معذورون في ذلك، لقلّة علمهم وقتئذ، ناهيك عن خصاصتهم، بعد النّكبة التي حلّت بهم، إبان عام ميلادي، حيث أتى الجراد على الأخضر واليابس، وهلك الحرث والنّسل، ولم يترك للفلاحين من نخيل سباخهم، سوى نخل محلوق جريده، وتمره الرّطب من عرجونه عند النّخلة المتأخرة، أو تمره اليابس من زيوانه عند النّخلة المبكّرة، ما حدا بسكان قصرنا إلى أن يتخذوا من هذا العام، تاريخاً لأحداثهم، ومعلماً بارزاً من معالمهم الزّمنية المنحوتة التي لا تُنسى. وهو الأمر ذاته الذي جعل الكثرة من أهل زيواننا، يهاجرون لتونس في ذلك العام الحزين، بحثاً وطلباً للرزق، بمن فيهم أحد أبناء عمومتنا المدعو سيد الغيواني التواتي.

ومما ذكره والدي من أمر تلك القنبلة الذّرية اللّعينة، التي ولدتُ في عامها، أنّه في ليل أحد أيام ذلك الشتاء، وزّع عليهم العساكر الفرنسيون، حجابات حديدية معلّقة برقباتهم، تحمل أرقام بطاقات هويتهم، وحذّروهم بأن لا يخرجوا عند الفجر من اليوم

---

[43]- قنينة جلدية، لها غطاء من جلدها.

[44]- محفظة تقليدية، لها غطاء هرمي، تستعمل لعدة أغراض محلية.

[45]- تطلق السودان في لهجة توات، على صحراء مالي والنيجر.

الموالي، ولما كان الحال من ذلك الفجر، اهتزّت الأرض، وزلزلت زلزالها، وتلبّدتِ السماء بغيوم صفراء ورمادية.

كما ذكرت عمّتي نفوسة كذلك، أن باب بيتنا الخشبي في ذلك الفجر المشؤوم قد اهتزّ، حتى سُمع له نقرٌ مخشخشٌ بأضلاعه الخشبية، في حين نهق الحمير بمواشيرنا، وقاق الدجاج في رحبة شياهنا، وعلا صياح الأطفال في أرجاء القصر، حتى بلغ صداها وشهبها لأكثر من 700 كلم، حتى ظنّ النّاس أنّها القيامة.

قلتُ، فطرقتْ أمي ذلك العود الأملس من الحنّاء، طرقاً خفيفاً على جانبي القنينة عند خروجه، سقط منه ما زاد عن الحدّ المرغوب، ومرّرته على عينيّ. عندها زحفتْ خالتي لالَّة بَاتي نحوي، تاركة خلف زحفها أثراً لأصابعها برمل البيت، وهمستْ في أذني اليمنى، وأنا لازلت في حجر أمي، وقالت بلهجة تواتية مفهومة:

كايْنَة لمَحَبَّة

كايَنْ لَغْدَرْ

.....

.....

كايَنْ لْجوعْ

كايَنْ لَعْرا

.....

.....

كايْنَة الصَّحَة

كايَنْ لَوْجَعْ

.....

.....

كايَنْ لَحْيا

كايْنَة الموتْ

.....

.....

بعدها ألبستني أمي ثوباً خفيفاً، يسمّى عندنا الدْليق[46]، طوله مقدار ذراع العرّاف عند أهل ناحيتنا. كانت قد جهزّته لي مُذْ كنتُ في رحمها، وهي محبولةٌ بي في الشّهر الثّامن، مع أغراض أخرى، كالدَّنْفاسَة[47]، وكذا الكَنْبوشْ[48]، وصرّة أم النّاس[49]، التي كانت تُخلط مع بخور يسمّى عند أصحاب زيواننا، ببخور ليسْلاَمْ، وكذا الشّحم. حيث تعجن تلك المذكورات، وتدار بالكفّ حتى تصير كرات صغيرة. كما كانت أمي وهي في شهرها الثّامن، قد أرسلت للطيّانة، أن تصنع لها الغَرْغارْ[50]، الذي قد تستأنس به لغرغرة الحليب.

قبل أنْ أذوقَ، وليس أنْ أتذوَّقَ حليب أمي، كانت عيشة مباركة قد أوصتها قبل الخروج من عندها، بأن تضع أصبعها الأيمن، حتى يبلغ ثلثه في العسل المخلوط بالشيح، وتضع منه قليلاً في فمي. بعدها أخرجت أمي ثديها الأيسر، ووشكت في قدح طيني صغير، وشكات معدودات من حليبها، وأمرت قامو بأن تضعه فوق سطح البيت بعد الغروب، لكي يشربه طائر يسمّى عندنا سَحيرَة اللّيل[51]، وأنجو من رضعتها القاتلة. إذا ما قامت أمي لشغلها، أو لقضاء حاجة عند جارتها أمبيريكة، وتركتني وحدي بعد الغروب، أو سهت عن تغطيتي في الخطير، وهو مهدٌ مصنوع من عصي الزيوان المقوّسة.

ثم مدّت أمي يدها إلى ثديها الأيمن، وأنا في حجرها، وقرّبت حلمة ثديها من فمي، وقبضتْ قبضاً خفيفاً على منتصف ثديها، فتناثرت قطرات الحليب الدّافئة على صحن جبهتي، وحاجب عيني اليمنى، وفمي، وشفتي الورديتين، اللّتين كانتا شبه مغلقتين. وبالفطرة أخرجتُ مقدّمة لساني الطُّفولي، فتبلّل بالحليب، ثمّ أدخلتُه في جوف فمي؛ لكن يمكن تسويغ ذلك الذوق عندي إلى تذوّقٍ غايته ومنتهاه معرفة الحلو من المرّ وفقط، أو قُلْ ليس بعد.

---

[46]- ثوب أبيض صوفي مصبوغ بالحناء، والقاف هنا تنطق جيماً قاهرية.
[47]- فراش مبطن تقليدي، يُصنع من الثياب البالية.
[48]- غطاء رأسي تقليدي، يستعمل لتغطية رأس الصبي زمن البرد.
[49]- حبوب سوداء، تستعمل كأبخرة على جمر البخار، أو تسرر في سرر، وهي من المحجبات الطاردات للبأس، في اعتقاد أهل الزيوان.
[50]- قالب طيني يصنع على قشرة البيضة، ويُحمى في النار.
[51]- طائر الخفاش.

مسحت أمي قطرات الحليب المتساقطة على جبهتي، وطرف عيني بقناعها المصنوع من كتّان الدْميشي[52]. عندها تثاءبتُ، وألقيتُ نظرة طفولية بريئة على وجه أمي. أتصوّره وأنا أُنغنغ في حجرها، وجهاً شريفياً باهتاً، لا زال حمل تسعة شهور ومخاضها، بادياً على محيّاه، صُهِّد فيه ثكلها لحمليها الفاسد والميّت، مع ما قد ترسّب فيه من وساوس سحر أيْقشَ، ونكاية الأعمام . غفر الله لهم . بميلاد أختي مريْمو، وانتظار سبع سنوات قبل مجيئي، ينضاف إليه تنغيصات عمّتي نفوسة لزيارة عزرائيل المتكررة ومحبته لعتبة بيتنا، ما أقلقها وأرّق ليلها، وأقضّ مضجعها، وزاد من خوفها، وشدّة روعها، حتى غدتْ ترى في المرض موتاً، وفي الصّحة مرضاً. وقد كانت في هذه الوضعية تقوم بعصب رأسها ببياتتها[53] الزرقاء الدّاكنة، إذ عقدتها عقدة خلفية، شكّل مقبض اليدين منها صورة كرنافة نخل.

كنتُ خلال ربطها لعقدة بياتتها المكرنفة، قد ذقتُ الحليب الذي كان في مقدّمة لساني، المختلط بطعم العسل المشيَّح. الذي كان أوّل طعم يسلك مَرِئِي الرّخو الضيّق، ليستقر عند الفتحة العلوية لمعدتي، منتظراً قطرات الحليب، والتي كانت تنزل فيه كنزول قطرات المطر على سعف النّخيل المتدلي. وبطريقة لا شعورية تحرّكت رجلاي، وتلامستا مع بعضهما. ما أشعر أمي برغبتي في الاستزادة من الحليب. رضعت ما شاء الله لي أن أرضع، حتى ارتويت، وبدأ حاجباي ينقبضان، إيذاناً بمجيء سهاد النوم ورسوله، كانت أمي ساعتها تهزّني في حجرها هزاً خفيفاً بركبتها اليمني، كأني في أرجوحة، وتطبطب بيدها اليمنى طبطبة خفيفة على وجهي، وهي تقول مغنية بصوتها الشجي، أغنية شعبية مشهورة عندنا، تستعملها الأمهات لتغليب النوم عند الصبي، وهو في الحجر:

اللهْ اللهْ اللهْ

يا سيدي بوتَدارَة[54]

يا مَنْ جَاهَكْ عند الله[55]

أرِجَالْ الصَبَّارَة[56]

---

[52]- كتان قديم، كان أغلب لباس النساء بتوات خلال الستينيات والسبعينيات.

[53]- البياتة: لفظ تواتي محلي، يعني قطعة مستطيلة من كتان أزرق داكن، كالنيلة عند الطوارق.

[54]- ولي مشهور بتوات، يقع ضريحه ومرقده بقصر يدعى إكيس بنواحي تامست.

[55]- لك جاه مقبول عند الله.

جيتْ أمْهَوَّدْ لتْواتْ[57]

ألقيتْ الزَّعْفَة مَا أبْقَاتْ[58]

أدَّاهَا بُو رِيْشَاتْ[59]

أوْ لَحتْ العَارْ أَعْلَى مُولاَنَا[60]

بعدها نمت نوماً عميقاً، فوضعتني في دَنْفاسَتي تحت الخطير.

---

[56]- لكونك من الرجال الصابرين.

[57]- عزمت النزول والسفر لتوات.

[58]- وجدت سعف النخيل محلوقاً.

[59]- بوريشات: كناية عن الجراد.

[60]- أوكلت أمري لله.

الزقاق الثاني من قصبة القصر الطيني

ظلّ هذا حالي بين حجر أمي و خطيري، مدّة سبعة أيام كاملة، لا يُبرح بي إلى غيرهما، إلى أن جاء يوم التّسمية(السْبوعْ). ولمّا بلغتِ الشّمس ضحوتها الربيعية، أرسل أبي لمبارك ولد بوجمعة، هو رجلٌ فاحم اللّون قليلاً، كالفحم بعد انطفائه، حيث تنطمس فيه شدّة السّواد، أجعد الشعر، أفطس الأنف، شفتاه ممتلئتان. كل ما يبرز فيه من بياض، هو بياض عينيه، اللّتين كانت الشعيرات الدّموية الحمراء بادية فيهما، لكثرة السّواد فيما حولهما، أسنانه رغم اصفرارها، إلا أنّها كانت تبدو بيضاء، كطلعة العرجون في قَلْوَانِه[61]، قبل أن يرتدّ زيواناً يابساً في نخله، مفتول العضلات، مُعرّق الذراعين، هادئ الطبع، قليل الكلام، طائع للأمر، ليس بالطويل البيّن، ولا بالقصير الهيّن.

فذبح الضّحية المسمّاة خروف الدَّمَانْ[62]، وأمره والدي بعد ذبحه لها، بأن يعطي جلدها الأحمر المنقّط بالأبيض لزوجته قامو، لتأتي به لأمي. فمسكت أمي برجليّ لأعلى، ورأسي لأسفل، وأدخلتني في جوف ذلك الجلد من جهة بطنه، وقد كان دخولي إليه، كدخول نَفَاذْ[63] فَقَّارة مظلمة، حتى بلغتُ ثلثه أو يزيد، ثمّ أخرجتني، كنتُ خلال ذلك الدّخول والخروج، قدِ التصقت بجسدي بعض الحبّات من الرّمل، التي علقت بباطن الجلد عند الذّبح، وهي وصيةٌ أخرى من وصايا عيشة مباركة لأمي، وبتذكير شديد وملّح من عمّتي نفوسة...، لكي يطرد الضرّ والبأس عنّي.

فأقام والدي وليمة غذائية بـ مَصْرِيَّتنا[64] البرّانية[65]، حيث كان أهل قصرنا يستحسنون إقامة الولائم في الربيع نهاراً، لقلّة أفرشتهم، وانعدام الإنارة ليلاً. أكرم فيها أعمامي الكبار، الحاج قدّور، وهو أكبرهم وماسك مفاتيح خزائنهم، مرابطي، سمرته مفتوحة، جبهته عريضة، عيناه جاحظتان، كثير التندّر، والكلام بالمقلوب، أنانيّ الطبع، حيليّ في القسمة وتوزيع الحصّة. وكذا شقيقه الحاج عبد الله، الذي كان يصغره بعامين وزيادة قليلة، شبيه له في كلّ شيء، إلا في الطبع، فقد كان ساذجاً، كثير الضحك،

---

[61]- القلوان، هو الغلاف الذي يغلف طلعة العرجون.

[62]- الدمّان: هي الأغنام التواتية البلدية الخالصة، ذات اللّحوم الطرية، وهي أغلى وأجود من اللّحوم المجلوبة من السودان، المسماة أسيداون.

[63]- أصل اللفظ فصيح نفاذ، من نفذ ينفذ، لكنه درّج وقلبت ذاله دالاً، وهو بمعنى النفق.

[64]- تطلق المصرية في اللّهجة التواتية، على البيت المستقل عن البيت العام، الذي هو للطهي وغيره، وتستعمل عادة، كمحل لاستقبال الضيوف الرجال.

[65]- الخارجية.

مخلياً أمره لأخيه الكبير، في القسمة والحصّة، وعمّي الأصغر حَمُّو، شقيق والدي، هو الآخر بشني اللّون مثل عمّتي ووالدي، عيناه غائرتان؛ لكن ليس بذلك الغور لعيني عمّتي نفوسة، به تلولة في حنكه الأيمن، شعر شاربه أسود مشوّك، يصغره بخمس سنوات، كان واسطة العقد بين والدي وعمّتي نفوسة.

لم يحظَ بنعمة الولد، وفسّرتْ عمّتي ما أصابه بما أصاب والدتي من جرّاء جداول أيْقشَ، فقد تزوّج ثلاث مرات، حتى أصابه اليأس، وطلّق آخر زوجاته وخلّى أمره لله، وبقيّ يسكن معنا، وقد زادتني معرفة وضعيته هذه يقيناً، بسبب كل هذا الدلال والاصطفاء المبالغ فيه، الذي حظيتُ به من أبي، وأمي، و عمّتي نفوسة بطبيعة الحال.

فبادر أكبر الأعمام عند دخولهم بتهنئة مصطنعة لوالدي...، فقال لوالدي، وهو يعدّل تكوير عمامته على رأسه، التي كان فيها حجابٌ محمّرٌ بارزٌ في ثنيتها من الجهة الأمامية اليمنى، فقال:

اللّهم اجعله من العائشين

والعاقبة لإخوانه القادمين

و يقطع هذه السَّبيبة...

التّابعة التّبيعة القاطعة لحبل الخليفة...

فردّ عليه والدي بابتسامة عريضة، تكفي عن القول...، وقد كان ساعتها يتلمّس ذقنه، وعنفقة شاربه، وهو يقول في نفسه:

(اللْسَانْ ما فيه أعْضَمْ يا وَلدْ بويا[66])

كم توسلتم بالصلاّح من رجال توات

حتى يبقى زيواننا في أَضْنايَتْكُمْ[67]

كما حضر الطّالب سيد الحاج لكبير إمام القصر، وقد كان يحضر ولائمنا على الدّوام، حتى تلك المخصوصة منها، هو شخصٌ مهابٌ، لا يسمع من الكبير ولا من الصّغير، ولا من الرّجل ولا المرأة، ولا الحرّ ولا العبد، سوى كلمة سيدي، وجهه

---

[66]- مثل شعبي تواتي، اللسان ليس فيه عظم، يطلق على القول الذي لا يتوافق مع ما في القلب.

[67]- لفظ تواتي محلي، يطلق على الذرية، يُقال عندهم: فلان لا يضني، بمعنى لا يلد.

مشرق، لكثرة صلاته ونسكه، كشروق الشّمس خلف كثبان عرق الرّمل زمن الصيف، له لحية بيضاء كثّة. دردتْ أغلب أسنانه بعد سبعينيته، ما جعل نطق بعض الحروف عنده، ليس كما قرّر تصويتها من مخارجها اِبن جِنّي في سرّ صناعته وخصائصه.

فقد أُوتي مِيني التواتي الهجين ولد بَكَّةَ الطارقية، اقتداراً باهراً في تكرير تلك الحروف المدرّدة عند شيخنا، حيث كان ينتظر ساعتها ووقت نطق سيّدنا بها، فيتصيّدها من فمه، كحال تصيّد صبيان القصر للطير بالدود في السباخ زمن الربيع السّاخن.

كما زيّن وليمتنا مسؤول جماعة القصر سيد الحاج عبد السّلام، اللاّفت فيه، قامته الطويلة، وعرض كتفيه، تِنَقُوري[68] اللّون، بعيد مهوى القرط[69]، وقد كان من أكثر النّاس بقصرنا، بساتين وسباخاً، وفقاقيراً، كريماً، سخيّاً، محبوباً، صفات أهّلته وجعلت سكّان القصر، لا يبغون عنه بدلاً.

وكذا سيدي مُولْ النُّوبَة، حفيد ولي قصرنا سيدي شَايْ اللهْ، نفعنا الله وإياكم ببركته. وحضر من الشّرفاء، مولاي إسماعيل، ومولاي السعيد، ومولاي الزّين، وشيوخ القبائل وأعيانها، وكامل الجيران.

كانت الساعة وقتها منتصف النهار، حين غصّت المصْريَّة عن آخرها بالضيوف والمدعوين، بعدها بدأ عمي حَمُّو يطوف بالحاضرين، فوزّع عليهم الملفوف[70]، وما كادتِ الملفوفة تبلغ مضغها الأخير من الاستلذاذ بأفواه الحضور، حتى نُودي من آخر السقيفة الدّخلانية[71]، ولعلّه صوت أمبارك ولد بوجمعة، فصفّق تصفيقتين خفيفتين، وهو يقول للحاضرين:

(عَشْرُو عَشْرُو[72])

(حَلْقُوْ حَلْقُوْ[73])

---

[68]- تنقور: من أغلى وأنفس أنواع التمور التواتية، لونها أصفر مشرب بحمرة خفيفة.

[69]- مهوى القرط، لفظ فصيح، يعني المسافة بين شحمة الأذن والكتف، ويرمز بالدلالة على الرقبة وطولها.

[70]- هي قطع الكبد الملفوفة بالشحم، المصهدة تحت لهيب النار، لفترة وجيزة، الموضوعة في سفود حديدي له مقبض خشبي، منظومة فيه كالخرزات في خيط السبحة.

[71]- الداخلية.

[72]- تحلقوا في عشرة.

[73]، القاف هنا تنطق جيم قاهرية.

تحلّق الحضور في شكل حلقات دائرية، عدد الحلقة الواحدة كما جرى العرف عندنا، أن لا يتعدى العشرة من الرجال، وجيء بالقصعة الخشبية المغطاة بالمكبّ[74]. كانت تلك القصاع المملوءة بالكسكس الممرّق، قد وُضع عليها عَطَّاري[75]من اللّحم مربوط بسعفة خضراء مطهوّة معه، فبدأ الجمع في تكوير لُقم الكسكس باليد، ورفعها مكوّرة فوق السّبابة والإبهام، حتى ليخيّل لك، أنها فوق كرسي، أُعدّ لها باقتدار محكم، ليسهل وصولها للشفتين.

خلال أكل الثلث الأول من القصعة، كان عمي الأكبر يجلس بجانب أخيه الحاج عبدالله، حيث بادره الأول، بكلام مهموس في أذنه، وقال له:

لقد قطع علينا هذا المولود

طريقنا لتلك..... يا أخي

فنظر الصغير للكبير، بنظرة بريئة، وهزّ رأسه، وقال في نفسه، ويده ملهية بتكوير اللقمة:

(تاكل الغلّة أو أتسب الملّة)

ولمّا يبلغ الأكل ثلثه أو يكاد، يبدأ أحد المتحلقين بالتيامن في توزيع اللّحم بعملية تسمّى التَّسْمارْ[76]، وفي أكثر الأحوال أن يكون السَّمَار أصغر المتحلقين سناً، أو أعدمهم سباخاً وقواريط. وبعد الفراغ من الأكل بالمَصْريّة البَرّانية، وشرب الشّاي بها، الذي كان يقيم طقوسه أمبارك ولد بوجمعة بكل مهارةٍ واقتدارٍ، وقبل أن يقوم الطّالب سيد الحاج لكبير، بمراسيم قراءة ختم السّلكة، قال أبي للحاضرين، وهو ينظر للطالب الحاج لكبير، ولأعمامي الكبار:

لقد أسميته على والدي لَمْرَابَطْ

وهو فألٌ يتبرّك الرّجل باسم أبيه، قصد عضّ المسمّى على تركة المسمّى عليه، من السّباخ، والفقاقير، والمطامير، والزيوان...ففتّح الجميع، ودعوا لي بطول العمر، والبركة، وختم القرآن، والزّواج وإنجاب الأولاد والأحفاد، وبقاء أسباب الأسباخ في أوتاد الأكواخ...، وقد كان والدي في هذه اللّحظة، قد اغتنم فرصة وجود عمّي

---

[74]- المكب: هو غطاء هرمي، مصنوع من الزيوان المتسوج بالسعف اليابس.

[75]- العطاري: وزن محلي، يربو على الرطل كثيراً، ويدنو من الكيلوغرام.

[76]- التسمار: عادة تواتية محلية، تعني توزيع اللحم بالتيامن على أعضاء الحلقة.

الأصغر حَمُّو، وطلب منه أن يدخل إلى بيتنا بالقصبة، ويؤذن في أذني اليمنى. اقترب شارب عمّي حَمُّو المشوّك بالشعر منّي، ولامس شحمة أذني الرّخوة المُحمرّة، كتلك الحُمرة التي بدتْ على جسدي وقت ولادتي، بعد مرور تلك السّعفة اليابسة عليه، فقال في أذني بصوت خافت:

الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدا رسول الله

فأعطته أمي فخذاً من دجاجتها، التي كانت في أغْبيجْ[77] طيني بجانبها، وقد كان ذلك الأغْبيجْ مغطّى بطبق سعفي، مصنوع من الزيوان، ووعدته أمي إن تخطاني بوحَمْرونْ[78]، وذهل عنّي الطّاعون، ولم يحصل لي ما حصل للهالكين من صبيان القصر قبلي، ونجوتُ وكبرتُ، وبقيتُ لميراثي، ففي يوم عرسي . إن قدّر الله لي الحياة . يكون الوحيد الذي يأكل معي تَكَبُّوسْ[79].

بينما دعت أمي لغذاء وليمتها، خالتي لالَّة بَاتي، التي كانت معنا لتعاونها خلال شهر النّفاس، وعمّتي نفوسة، والتي كانت تسكن معنا على الدوام، بعدما توفّى زوجها اِبن عمّنا الحاج الوَتيقْ، ولم ينجبا عقباً...، لا شادّ للوتد في الموتود...، ولا عاقد للمعقود في المفقود...كما حضرت عيشة مباركة بنت بَلَّة، واِبنتها النَّايْرَة بطبيعة الحال، لأنّهما أشّرتا سرّتي للدخول إلى هذه المملكة الزيوانية الغريبة. كما حضرت زوجات أعمامي الكبار، وكذا كبيرات القبائل، ومن الشّريفات لالَّة ثْبيرو، ولالَّة عَلُّو، وقامو بنت الحمدو، واِبنها الدّاعلي، وقد كانا هذان الأخيران يعيشان معنا على الدّوام، رفقة ثالثهم أمبارك ولد بوجمعة الوفي، ويسكنون ببيتنا الثّاني بدرب الشْهُودْ، فأكلهم أكلنا، ولباسهم لباسنا، وكأنّهم جزء منا، لا فرق بيننا وبينهم، إلاّ في اللّون، وخشونة كفِّ اليد وباطن الرِّجل، وكذا الطاقة على العمل من عدمها.

كان ذلك الدْلِيقْ المصفّر، الذي ألبسته لي أمي يوم ولادتي، هو لباسي الوحيد خلال ذلك الشهر من النّفاس، وقد كانت أمي كلّما ترسّب القيء من ناحيته الأمامية، قامت

---

[77]- قدح طيني صغير.

[78]- الحصبة.

[79]- معدة الخروف المحشوة باللحم، وهي عادة تستعمل للعريس في ليلة الدَّخْلَة.

بنزعه، وفركته بين كفيها، حتى تتفتت طبقة الحليب المترسّب عليه، كحبات البَشْنَة، ثم تعيده إلى لحمي.

يوم خروج أمي من النّفاس؛ بل يوم خروجي من النّفاس، جاءت عيشة مباركة، وتخلّفت ابنتها النّايْرَة هذه المرة؛ لأنّها كانت منشغلة بأمر استقبال زوجها، الذي كان غائباً مع القوافل التّجارية الآتية من بلاد السّودان، كما حضرت خالتي لالَّة بَاتي، و عمّتي نفوسة، وزوجات أعمامي الكبار، وجارات أمي وحبيباتها المقرّبات، وعلى رأسهن أمبيريكة زوجة سيد الحاج لعوج، وأمَّالاَلَّة زوجة سيد الهِيبْ، والحسنية زوجة القَنّينَة، ومَامَا زوجة أبَّاعَلَّة، وأفِيطْنَة زوجة أبّا فضيل، ونَانَّة عيشة زوجة أبّاكريم، والمشَّاطة مولودة زوجة أبّاسالم الشرّاك...

أما أمي وضيفاتها، فأكملن فرحتهن ببيتنا الدّخلاني بالقصبة، حتى بعد صلاة العصر، عندها قدّمتني أمي لعيشة مباركة، وحلقت رأسي بموسها الحاد، الذي قطعت به حبل سرّتي يوم ولادتي، فتركت على جانبي رأسي قرنين[80]، بينهما عرف كعرف الديك من الشعر، ودلكت دلكاً قوياً في شعر قرني الأيمن قطعة رطبة من الحَنْتِيتْ، كانت قد سخّنتها على جمر البخَّار الطيني، ثم تركتها حتى جفّت على قرني الأيمن. بعدها ألبستني قطعة شاش بيضاء بمقدار الذّراع، بها ثقب دائري، يتسع لدخول رأسي، وعلّقت في رقبتي حجابات. كانت أمي أرسلت للطّالب سيد الحاج لكبير، أن يكتبها لها، وأرسلت مع رسولها سبع بيضات كتمليحة له، ثم دفعت بهم لقامو، لكي تقوم بتحميرهم عند شَرَّاك[81] القصر الفوقاني، المَبْرُوك ولد لَمْعَلَّمْ، مقابل نصف ثمن من القمح، وخمس قبضات من التَّابْسُوتْ[82]، ومثيلاتها من البَشْنَة.

كانت تلك الحجابات المحمرّة، والتي وضعت بينها البَكْمَة، والوَدْعَة، والمحارة[83]، وصرّة أم النّاس، ومسمار حديدي صغير، تلقى حراسة وعناية شديدة ولافتة من عمّتي نفوسة... كما كان تخلّل تلك الأصداف بينها، يزيدني بهاءً ونضارةً، مع ما قد فعله مرود الكحل في عيني من سواد لامعٍ.

---

[80]- يطلق القرن على الدائرة.

[81]- الشراك: يطلق على صانع الجلود، ولذلك يقولون لاسم الفاعل: الشراك.

[82]- التابسوت : نبات له حبوب متوسطة الحجم، تتجمع تلك الحبوب في سنبلة، كقبضة اليد.

[83]- البكمة، والودعة، والمحارة؛ هي أصداف بحرية.

أما أمي فخلال هذه الفترة، فقد صعدت لغرفة بسطح بيتنا تُدعى ثْقَالَة[84]، واستحمّت استحماماً خفيفاً، فوق حجرة الرّحى، وبعد أن جففت نفسها بقناع نفاسها، لبست عباءة أَمِيْسَاتْ الحُوتْ[85]، وسروالاً أسوداً من كتّان سَتَانْ[86]، وبينما لازال رأسها مبلّلاً، نادتها المشّاطة مُولُودَة، ودفعت رأسها دفعاً خفيفاً إلى حجرها، وبدأت تستلّ شعرها، الشّعرة تلو الأخرى بشوكة يابسة، من نهاية جريدة يابسة لنخلة مدلّلة بين النخيل كدلالي عند أهلي، تسمّى هذه النخلة عندنا بَانَخْلُوفْ[87].

بعدها بدا شعر رأس أمي كعشّ نخل، عندها بدأت مُولُودَة بدهن شعر أمي بالحنّاء، والشّحم، ودهن نسائي يُطلق النّسوة عليه دهن البَرْيَانْتي، ثم بدأت تمشط شعرها بتراب محروق، كان في طبق سعفي بجانبها، فنسجت لها في مقدّمة رأسها أَقُوْفَة[88]، ونسجت على جانبي رأسها سبولة بُوسَاقْ[89]، ومن النّاحية الخلفية لرأسها نسجت لها القَطَّايَة[90]، كنسج ذلك الطبق الذي كان يغطي أغْبيجها في شهر نفاسها. كما كانت تخيّط تلك القَطَّايَة بمخيط حديدي، فيه سير من الجلد الأسود، وعبر كل هذا كانت أمي تضع بياتتها الزرقاء الدّاكنة فوق كتفها، حتى لا تتسخ عباءة أَمِيْسَاتْ الحُوتْ الجديدة.

وضعت أمي خَنْتَها الجديد على رأسها، حيث كانت نهاية بُوسَاقْ تظهر من جانبيه، كعراجين تمر. بعد هذا أخرجت أمي شظية مرآة مكسّرة شبه مطموسة من تَدَارَتِها[91]، كان والدي قد جلبها هي الأخرى من حَمُودْيَا رَقَّان، مع تلك القنينة التي كانت تضع فيها الكحل، وتلك التي كان يستعملها لنفحة شَمَّته[92]. واكتحلت في عينيها بذلك المرود، الذي كانت تكحّل به عيني زمن النّفاس وبعده، ثم وضعت قطعة من المسواك، وبدأت تلوكها في فمها، كأنّها تمضغ لحم جمل هرم. وبعد أن ليّنت المسواك بأسنانها، أخرجته عند مقدّمة فمها، وأخذته بطرفي أصبعها، وبدأت تمرره

---

[84]- غرفة مسقفة فوق سطح البيت.
[85]- لباس نسوي، كانت نساء توات يلبسنه خلال الستينيات والسبعينيات.
[86]- كتان أسود، كانت مساء توات يخيطن منه سراويلاً، خلال الستينيات والسبعينيات.
[87]- نخلة عزيزة عند أهل توات، لبكور تمرها، وهي من محمرات البلح.
[88]- القاف هنا تنطق جيماً قاهرية، وهي الشعر المنسوج في مقدمة رأس المرأة على شكل هرم.
[89]- القاف هنا تنطق جيماً قاهرية، وهو سبولة منسوجة على جانبي الرأس.
[90]- القاف هنا تنطق جيماً قاهرية، وهي عريضة على بوساق.
[91]- التدارة: لفظ تواتي، يُقصد به محفظة هرمية منسوجة من الزيوان بالسعف، تستعمل لأغراض شتى.
[92]- تطلق الشمّة في لهجة توات، على التبغ البَلَدي.

على شفتيها، مرّة للشفة العليا، ومرّة للسّفلى، حتى بدأت شفتاها تحمرّان، كأنّ زعفراناً خفيفاً مُرِّر عليهما.

بعدها أخذت أمي قارورة لُبَان صغيرة، وهو نوع من العطر، بدا لي لون ذلك اللُّبَان . الله أعلم . كبول النّاقة الحُبلى في شهورها الأخيرة، وفتحتْ غطاءها الأبيض فتحاً دائرياً، ولكون فم قارورة اللُّبَان كان مفتوحاً بالكامل، ما جعلها تضع باطن بنانة سبابتها على فم القارورة، وتترك فرجة صغيرة، كانت تنفث منها رشّات من اللُّبَان، على صدرها، وعلى رأسها.

خلال فترة تزيّنها، كانت عيشة مباركة قد أفرغت للتوّ من تَخْلاَل[93] إزَار أمي، وقد كان إزاراً من المَحْمودي الأزرق[94]، كان والدي قد اشتراه من تِيمِي[95]، عندما سافر مع قبائل حَمْيَانْ المَغْلاَوِيَّة المَشْرَاوِيَّة[96]، التي كانت تأتي لمملكتنا، وتتاجر معهم بالمقايضة. فيأتون لنا بشحم البُوشْ، والدّهن، والكَلِيلَة[97]، والفول الحَمْيَاني الغليظ، ويتبضّعون من عندنا، الحنّاء، والتّمر، وأحيانا القطن البَلْدي.

كان الوقت مغرباً من تلك الجمعة، حين لبست أمي إزارها، وألقت بهدبه المسلسل بسلسلة فضية، وسَاروت[98]، ومنقاش، يستعمل لنزع رأس الشوك، عندما يصيب باطن الرِّجل، لكثرة النخيل عندنا، فتلقي لقياً خفيفاً بهدب ذلك الإزار المسلسل على كتفها الأيسر. هو حالةٌ بين أمرين، لا كإتباع اليد لإبعاد ذباب الوجه، ولا كانبساط الذّراع مع اليد بعد الحصد، ما يجعله مشدوداً نحو الأسفل.

تكفّلت خالتي لالَّة بَاتي بحملي، بينما تولّت عمّتي نفوسة طقوس مسك البخّار، وذلك ديدن فقهها، وملّة شريعتها. حيث كانت تنفخ في جمره، بين الحين والآخر، وتضع عليه بين الفينة والأخرى حبّات البخور، مع تعويذاتها المتسلسلة والمتكرّرة...

وهي تقول:

(عَشْ عَشْ يا البَاسْ[99])

---

[93]- وضع الخلالة بالإيزار، والعادة أن الإيزار لا تلبسه إلا المرأة المتزوجة، أما القناع فللبنات، ومن ثمة يقال للعروس بعد عرسها، أنها أصبحت من المخللات.

[94]- نوع من الكتان، كانت نساء توات، خلال الستينيات والسبعينيات، يستعملنه إزارات يلتحفن به.

[95]- كان أهل توات الوسطى خلال الستينيات، يطلقون تيمي، على أدرار كذلك، بالرغم من أن الأولى منطقة مجاورة لأدرار.

[96]- قبائل من المشرية نواحي الهضاب العليا الجزائرية، كانت تأتي لتوات، وتتاجر مع أهلها بالمقايضة، خلال فترة الستينيات.

[97]- الرائب اليابس.

[98]- مفتاح حديدي تقليدي.

[99]- أغرب أغرب عنا أيها البأس.

كانت هذه الرّحلة التي أخرجوني محمولاً فيها لزيارة ضريح ولي قصرنا، الولي الصّالح سيدي شَايْ اللهْ[100]، هي أوّل مرة أتعدى فيها عتبة بيتنا، والذي أتصوره من الداخل، بيتاً سقيفياً، مستطيلاً، طينياً، سُقِّفتْ سقيفاته بخشب جذع النّخل، الذي تتخلله الكرانيف المرصوفة والمتخالفة بين تلك الجذوع النّخلية. بابه خشبي، صُنع من جذع النخل المملّسة بإبراء القادوم. وُضع في أعلاه، قفل يسمّى أَفْكَرْ[101]، صُنع باقتدار محكم، من حرفي ماهر، قد يكون تعلّم جدّه هذه الصنعة . وهو أغلب الظن . على آخر يهودي كان يسكن تَمَنْطِيط، قبل أن يُطرد من لدن شيخ توات المغيلي. وضعتْ فيه فتحة حائطية تصل الخارج بالداخل، تسمح بدخول الذّراع إليه من ذلك الحائط، وتحت هذا القفل من خلف الباب، وُضع قفل آخر عند وسط الباب، لا يفتح إلا من الداخل، يسمّى تَقَلاَّبْ[102].

تقابلك فيه سقيفة الباب، التي تدخلك إلى سقيفة القعود المستطيلة، التي بدورها تسلّمك لرحبة معرّاة، بينها وبين سقيفة القعود، باب يسمّى أَمْنَارْ[103]. وقد سُطِّح في زاوية من تلك الرّحبة المعرّاة مكان يُدعى لَمْنِيْصَبْ[104]، كما بُنيّ في زاوية منها وكرٌ للحمام. عندها تنفرج أمامك رحبة للشياه، بينها وبين رحبة الجلوس المعرّاة باب خشبي هو الآخر، حُفر في زاوية منها بئر مغطّى، كان الأوائل منهم، لا يفتحونه، إلا عند نزول الغزاة عليهم. سُقّفتْ من تلك الرّحبة الشياهية نهايتها، والتي يُصطلح عليها التَّقَمِّي[105]، حيث كان الدجاج والشياه، يحتمون فيها ليلاً، عند منزلة اللِّيَالي[106] من فلك حسابهم الشتائي، أو نهاراً في منزلة الصْمَايَمْ[107] من حسابهم الصيفي.

وقد انتصبَ في وسط الرّحبة المعرّاة التي بها لَمْنِيصَبْ، سلَّم يفضي إلى سطح بُنيّ في زاوية منه شِيخْ الدَّارْ(المرحاض)، هو تقليدي مربّع على أية حال، سقفه كسقف الدار تماماً، تركت من سقفه فتحتان، الأولى كبيرة، لتغوّط الكبار . أكرمكم الله .

---

[100]- تعني شاي الله، في لهجة أهل توات، ما يفيد التسليم الصوفي.

[101]- أفكر: قفل خشبي تقليدي مستطيل، له مفتاح خشبي كذلك، به أسنان حديدية كأسنان المشط، حُسبت تلك الأسنان بحسب الثقوب التي يدخلها في أفكر.

[102]- تاقلاب: قفل خشبي تقليدي مستطيل، ميزته أنه لا يفتح ويغلق إلا من الداخل، لا توجد به فتحة توصل الخارج بالداخل في الفتح كأفكر.

[103]- أمنار: كلمة بربرية تعني المدخل غير المبوب.

[104]- لمنيصب: كلمة بربرية تعني مكان صغير بمساحة المتر مربع، أقل ما يُقال عنه أنه مطبخهم.

[105]- التقمي: كلمة بربرية تعني المكان الذي تحتمي فيه الشياه والدجاج، قيلولة صيفاً، وليلا شتاء.

[106]- تعتبر منزلة اللّيالي عند ساكنة توات، من أشد المنازل الفلكية برودة في الشتاء.

[107]- تعتبر منزلة الصمايم عند سكان توات، من أحر المنازل الفلكية سخونة في الصيف.

والثانية صغيرة للصغار، تخلد في زاوية منه، قطع طوبية صغيرة، بحجم بيض الدجاج البَلْدي، مُلِّستْ خشونتها بإتقان، لتكون غرضاً للاستجمار. تنتصب في زاويته الدّاخلية، أعواد أو عصي مثبتة في حائطه، عليها بقايا ولادة الشيّاه اليابسة المتكمّشة، وهو اعتقاد سائد عندهم، لدفع الضرّ، والشياطين، والأرواح الشريرة، عن البيت وأهله.

كما بُنّيتْ في زاوية أخرى من ذلك السّطح غرفة مسقّفة تسمّى تْفَالَة، هي ذاتها التي استحمّت فيها أمي يوم خروجها من النّفاس، قلتُ يُستأنس بها للاغتسال من النّفاس، كما قد تفي بالغرض، لما يُوجب الاغتسال، من أمور الجنابة ونحوها، ولاسيما إذا ما بلغ الأبناء الحُلُم، وكثُر فيهم الاستيقاظ ليلاً، وكثرة الالتفات صيفاً.

تعلوها الغَرْفَة، وليست الغرفة هنا كتلك التي تعارف عليها أرباب المعاجم كـ اِبن منظور في معاجمهم، وإنّما هي مكان مخصص لوضع التّمر في الشّمس، عندما كان يعنّ لأمي تكسير التّمر لصنع السّفوف وقت الشتاء. كما بُنيَّتْ في وسط حائط السطح مطمورة لادخار التّمر.

قلتُ، فخرجتُ في هذه الخرجة الأولى محمولاً لزيارة ولي قصرنا سيدي شَايْ اللهْ، فوّزعوا على الصبيان شظايا كسرة من قمح بُورَكْبَة[108]، أُعدّت لهذا الغرض خصيصاً، كما قام بتزويرنا بالولي الصّالح، حفيده سيدي مُولْ النُّوبَة[109]. فسيَّرَ مزوِّرنا سيراً رقيقاً من الكتّان المكدّس على ضريح جده، وربطه في تمائمي، وذلك بطلب ملح من عمّتي نفوسة...، مع حفنة من تراب عند مقدّمة قبر جدّه، كانت موضوعة في وَدْعِيَّة[110] فخارية مزخرفة عند رأسه للجهة اليمنى، صرَّها في صرَّة، بعدها أعطته أمي خمسة دورو، وبانتهاء فترة النّفاس، تنتهي فترة وجود خالتي لالَّة بَاتي معنا، لتلتحق ببيتها وزوجها وأولادها.

كان والدي قد أتى متعجلاً قبل يومين، من تجارته ببلاد السودان خصيصاً لهذه المناسبة، فقد كان يحرص أشدّ الحرص، ويحسب في عودته ودخوله على أمي، لوقت الحيض، والطهر، والنّفاس، إلا إذا نابته نائبة طارئة.

---

[108]- نوع من أنواع القمح التواتي الجيد، إلى جانب أنواع أخرى منها قمح بلمبروك، وأم ركبة.

[109]- يقصد بالنوبة في لهجة توات، الجاه مطلقاً.

[110]- صحن فخاري مزخرف.

تعشّى القوم عندنا ببيتنا في هذه اللّيلة، على عجل غير معهود، ردمتْ قامو رماد القدر بالمنيصب، وودعتنا وخرجت أولاً للمبيت ببيتنا بدرب الشْهُودْ، وهي تحمل ابنها الرضيع الدَّاعْلي، رفقة زوجها أمبارك، أما أختي مريْمو، فقد تعهّدت بها عمّتي نفوسة لتنام معها ببيتنا هذا، أما والدي وأمي وأنا، فخرجنا للمبيت بمَصْرِيَتِنا البرّانية، وقد خلاّها له عمّي حَمُّو خلال هذه الفترة لينام معنا بالقصبة. ما يمكنني قوله بعد خروجنا لمصريتنا، أنه أصابني عطاسٌ شديدٌ، جراء تكاثف روائح اللُّبان والبخور والجاوي، ما سهّل عليّ النوم باكراً، فخليتُ الأمر واسعاً لأبي وأمي...

الزقاق الثالث من قصبة القصر الطيني

بدأ حليب أمي يزيد جسدي نموّاً، وغضاريفي متانةً، وعظامي صلابةً، حتى بلغتُ ستّة أشهر. كنت حينها قد بدأتُ أتماثل للجلوس، فحفرتْ لي أمي حفرة صغيرة في الرّمل بمقدار مقعدتي، الذي هو فراش البيت وليس لنا غيره، ووضعتني فيها، وكنت استشعر سخونة حبّات الرّمل، ولا سيّما زمن القيلولة، لكون الموسم كان صيفاً، وظلّ هذا التّمرين اليومي مدّة خمس مرات، وفي المرّة السادسة تمايلت يمنةً ويسرةً، حتى استويتُ جالساً بالقعود، فرأيتُ أمي تحمد الله، عندها قالت لها خالتي لالَّة بَاتي، التي جاءتنا زائرة في هذا اليوم:

تبارك الله، تبارك الله

لعقوبة للمشية إن شاء الله

فردت عليها أمي بأخوية شريفية ظريفة:

أتكوني حيَّة و سالمة يا بنت بُويا

كانت قَامُو في هذه اللّحظة تطحن القمح في الرّحى بجانبنا، حيث كان ابنها الدَّاعْلي نائماً بحذائها، وكان يومها قد جاوز العامين، ودخل في الفطام بشهور. فنهضت مسرعة، ونفضت عباءتها من دقيق القمح، حيث ترك ذلك النفض غباراً متطايراً كانت له رؤية، لسواد جدران بيتنا بالدّخان، وهرولت إلى مَصْرِيَتنا البرّانية، لتخبر أبي؛ لكونه كان بيننا خلال هذه الأيام، قلتُ، لتخبره بالتغيّر الجديد الذي طرأ على حياتي.

ولما وصلتْ لبيتنا البرّاني، بعد أن وقفت بسقيفة بابه عند الباب المفضي إلى سقيفة جلوسه، كانت خلال هذه اللّحظة تضع يدها اليمنى على حائط أَمْنَارِه، و يدها اليسرى على منتصفها فوق حزامها الأحمر الدّاكن، وهي تلهث؛ ولكن ليس بذلك اللّهث الذي كانت فيه أمي بعد مخاضها، أو كان عند الصبيان لدى نهاية السّبق في الحَرْكِ. كان والدي ساعتها يشرب الشاي، مع جارنا اللَّنْدُوشِيني سيد الحاج لعوج، فقالت له قَامُو بلهجتها المعتادة:

لَبْشَارَة... لَبْشَارَة... يا سيدي

فقال لها والدي، بعد أن بلع الرّشفة الأخيرة من شاي كأسه الوسطاني:

إِفْفْفْ (بشفتيه)، تَّتَّتَّتَّا (بلسانه)

خيراً إن شاء الله يا قَامُو

فقالت له قَامُو، وقد عدّلت ساعتها من وضعية يديها، التي كانت في منتصفها فسدلتها:

لقد تماثل ولد سيدي للجلوس

فقال لها والدي مبتسماً:

أنتِ دائماً يا قَامُو

قدمكِ خضراء[111]...

فشكرها أبي على هذه البشارة، وأعطاها ما في التَّدَارَة...، عندها طلب منها، ولم يأمرها في هذه الحالة، بأن تخبر زوجها أمبارك، لأن يذهب لـ لَمْعَلَّمْ، وهو طبيب القصر في جبر كسر العظم، وفي زيانة الختان، وقلع الضرس، لكي يقوم لي بطقوس الشِّراطة. وهي وخزات خفيفة بشفرة حادة، فشرّطني ثلاث شرطات على جانب خدّي الأيمن، ما بين العين والأذن، شكّلت تلك الشرطات طابعاً وخاتماً مميزاً بالعدد III لأهل مملكة زيواننا قاطبة، وفعل كذلك على جانبي الأيسر، وفوق ركبتيّ، وعلى ظاهر رجليّ.

فخرج منّي دم خفيف، لونه كآخر دم الذّبيحة، المذبوحة بسكين دامر، فكان الدّم أوّل ما يخرج من الشرطة يتجمع، ثم يبدأ في التّكوُّر، حتى يبلغ حجم حبّات التّسبيح، غير أنّها لم تكن معتدلة في الشّكل، فبعضها كان كحبّة البَشْنَة في أوّل تجمعه، وبعضها كحبّات التَّابْسُوتْ في وسط عهده بالتّجمع، وبعضها كحبّات الكَبَال(الذرة)، في آخر عهده.

ثم وضع الشرّاط عليها قليلاً من مسحوق الحنّاء، فاختلطت حمرة الدّم بغبرة الحنّاء الخضراء. كنت أحسُّ خلال ذلك انقباضاً في وجهي، ورعشة في جسدي، تتخللها غمغمة، تخرج من فمي المملوء بحليب الغَرْغَار، لعلّ ذلك يخفف من ألمي، ويسكّن روعتي، فقالت عمّتي نفوسة لأمي بلهجة تواتية خالصة:

(راهْ أخْرَجْ مَنّو دمْ لَحْرَامْ[112])

---

[111]- يُقال للمخبر بالخير.

[112]- لقد خرج منه الدم الحرام.

فتبسّمت والدتي، وخالتي، وقامو، فقالت قامو لأمي:

لعقوبة إن شاء الله لفطامو

وزيانتو، وصيامو

لأنه سوف يبقي لنا الحبَّة في التسبيح

ويوم عرسه أزغرد عليه

وأغني عليه أغنية تَضَرَايْ[113]

فردّت عليها أمي مبتسمة، بعد أن أدخلت ضفائر من شعرها، تحت خنتها:

أنتِ كذلك يا قامو

إن شاء الله تحضرين لطهارة ختان ابنك الداعلي

وصيامو، أو عرسو

كان هذا التغيّر الفيزيولوجي، نقلة نوعية في حياتي، بعدها أحضرت أمي قليلاً من أَنْغَادْ[114]، ثمّ وضعت أصبعها في رائب اللّبن المخثّر، ومرّرته عليه، ظاهراً وباطناً، بدا لي ذلك التقليب لأصبعها الملبَّن في أَنْغَادْ، كتمريغة حمار صباحية، وهو يخرج من مربطه، بأوّل أرض ترابية يُصبِّح عليها. فوضعته في فمي، كان تعاملي معه في هذه المرّة على أية حال، أحسن من تعاملي مع العسل المشيّح. وبعد أن أصبحت من الجالسين المروّضين، بدأت أمي بوضع الأشياء أمامي لتلفت انتباهي، حيث تتراجع للخلف، وهي تستقبلني بأمامها، بمقدار عكس ما قامت به خالتي لألّة باتي، عندما همست في أذني بمفارقات هذه الحياة، أثناء دخولي لهذه المملكة المدهشة.

بعدها تبدأ بلفت انتباهي إليها، بما يحفّز من الاقتراب إليها، أو بإعطاء شيء لافت أو لامع لأختي مريْمو، حتى أدنو منه، مما ينشّط انتباهي لتعلّم الحبو. فكنت خلال ذلك أضع يدي على التراب، حتى يميل جسدي نحو الأمام، فترتفع مؤخرتي بذلك القدر من الميل نحو الأمام، فتظهر على الأرض، ترسيمة مقعدتي على الرّمل، حيث يبرز ذلك الخطّ الذي يفرق ضفتي مقعدتي الطفولية.

---

[113]- هي سلسلة من العبارات، التي تشيد بمفاخر العائلة ومدحها.

[114]- دقيق التمر اليابس المكسّر.

ثم أعود بخوف الفطرة، إلى وضعيتي، كالحمام الصغير بوكر بيتنا، أو الزرزور بثقب سور قصبتنا، أو اليمام بنخلة سبختنا، يريد أن يتعلّم الطيران، فيرفرف بجناحيه استعداداً للطيران، وبالغريزة يخشى السّقوط، فيعود إلى وضعه الأصلي، وظلّ هذا هو حالي مرات ومرات.

تكرّرت محاولاتي، مع مراقبة أمي لي خشية السّقوط، وتمرّغ وجهي في التراب، وظلّ الحال بي هكذا حتى تعلّمت الحبو، وصرت مبرَّزاً فيه. فكم من مرة كانت أمي تضع بعض الأغراض بعيداً عني، فأسرع إليها بالحبو، أو يسرع إليها الدّاعلي بالمشي، حتى عاد تراب البيت ورمله، تضاريساً وخرائط لجرجرة أصابع رجلي، ورحى ركبتي، وكفّ يدي، وآثار أقدام الداعلي.

كل ما يمكن أن يكون قد وقع لي من أوجاع خلال هذه الفترة، وما أشدّ وقع نزوله بي لدى والدتي، من كثرة خشية ذكر القبر، من عمّتي نفوسة. ينضاف إلى هذا تصديق أمي الإبليسي، الذي كان يصوّر لها مصير حتفي، غير أن أيمانها بالله رغم جهلها، كان يسليها أحياناً وليس دائماً.

كان أوّله الذي يستحق الذّكر، ذلك الذي أتى للداعلي قبلي، وأتاني عند ظهور أسناني الأمامية، كان الوقت حينها ليلاً، والفصل شتاء، فبينما كان أهل البيت متحلقين، حول نار الموقد، نتلذذ دخانها ودفئها، التي كنا نستعملها لغرضي الإنارة والطهي. قامو بقرب الموقد توقد النار، وتكسّر الجريد، وبجانبها والدتي وعمّتي، فقالت قامو لأمي، وهي منهمكة بإشعال النار:

لم أرَ لحد الآن منذ عامين، أمراً نغّصني كأمر بداية نبات الأسنان عند الداعلي.

فردت عليها أمي، وهي تشبك أصابع يدها وتضمها إلى ركبتيها، خلال جلوسها من التدفئة:

أعطاني ربي الصبر؛ لكن الكبدة ما تصبر يا قامو

تلقفت عمتي نفوسة الكلمة منهما، ووضعت يدها على خدها وهي تهزّ رأسها وتقبض بأسنانها على شفتيها، و قالت:

ما نخشاه من وجع ابن أخي، ليست الكبدة وحدها، إنما نخشاه سباخنا وفقاقيرنا.

نظرت والدتي لقامو، وعند التقاء نظرة كل منهما للأخرى، تبسمتا تبسماً، تعرف كل منهما فحواه، عند حديث عمّتي عمن سيرث، ومن سيعصّب[115] للوارث.

فقالت أمي لقامو متحسّرة على أختي مريْمو:

مسكينة بنتي مريْمو، أصابها أكثر ما أصاب ولدي هذا؛ لكن عمّتها لم تقلق ولم تلتفت لوجعها، ولا لبكائها، وإن ما كانت تتعلل به دائماً في نظرتها غير الرحيمة لمريْمو، أنها لا تغلق الدار، ولا ترث.

ردت عليها قامو، وقد نهضت عمّتي لحظتها لقضاء حاجة لها بسطح البيت، فقالت قامو لأمي بمنطق حكيم:

نفوسة ربي يهديها، لولا البنت ما كانت هي، وما كنتِ أنتِ، وما كنتُ أنا، وما كان أحدٌ في الدنيا.

فقالت لها أمي:

اِفكرك بالشهادة يا قامو

فأسعفت الذاكرة والدتي ولخّصت أمر مريْمو وأترابها من بنات القصر، المحبّس على ذكوره دون الإناث، واستشهدت بمثل شعبي عندنا، وقالت:

(البَنْت عَنْدنا كي الرَّقْبَة، موكولة أومدمومة[116])

كان أوّل ما أتاني من أمر أوجاع نبات الأسنان الأمامية، أن أتتني الحمى والإسهال، وقلّة الرّضاعة، ما قلّل جسدي من حمايته للأمراض، فيكثر عندها حضور عمّتي بجانب أمي وبجانبي...، مع إكثارها لذكر هازم اللّذات بفمها، فيضحى بأمي أكثر مما عانته في حملي...، ومخاضي...، وليس هذا فحسب، وإنما تكثر ببيتنا في تلك الأيام بفعل عمّتي، صرائر أم النّاس، والأبخرة، والحجابات، ما ظهر منها وما بطن، في الوسائد و في ثقوب الحيطان.

فلا يهدأ لأمي بال إلاّ بعد أن يتخطاني مرض نبات السن. فتخرج كسرة لوليّنا سيدي شاي الله، كانت قد تصدّقت بها عليه إن تخطاني المرض، وأبقاني لميراثي...، كما كانت عمّتي نفوسة تبتعد عنّا كلّما طُرد المرض من بيتنا.

---

[115]- العصبة: أبناء العمومة.

[116]- لحم رقبة الشاة يؤكل، لكنه مذموماً إذا قورن بلحم الأضلاع، أو الكتف، أو الفخذ.

أما أبي فلم يرَ لمرضي أثراً يذكر، فقد كان منشغلاً بتجارته وقوافله بين ناحيتنا وبلاد الطوارق، وإن لم يرَ للمرض أثراً يذكر بالرؤية البصرية، فقد كان يراه بالرؤية القلبية، حتى وإنْ هو بصحراء بلاد الملثمين، حيث كانت تعتوره بعض الحالات من الغمّ والهمّ، يصاحبه خلالها، ما كان يصاحب أخته نفوسة.

فقد كان يحسب لوقت الحبو، ولزمن المشي، ولوجع بداية خروج السنّ والنّاب بالفم، كما كان يحسب لأمي، زمن الحيض والطهر والنفاس، وعندما يأتيه حال البلاد مع القوافل التجارية التوّاتية النّازلة بقاوا(غاو) المالية. فقد أخبر أوّل التوّاتيين المهجنين النّازلين من على جمله، بأمر ما أصاب القصر وناحيتنا من أمر البوحمرون، وما خلّفه من ضحايا قبل مغادرة آخر جمل لمملكة زيواننا من القافلة النّازلة بغاو.

فقد تقدّم والدي نحو سيدي حيبلّة الكنتي التمبكتي، الذي كان يتاجر بين توات وغاوْ، فقال له والدي مستفهماً بلهجة حسّانية تكرورية:

شْنو طاري فلَخْيامْ[117]؟

أيّاك موهو باسْ يا أرَقاجْ[118]

فقال له سيدي حيبلّة الكنتي بلهجة أبي التواتية، بعد أن عدّل لثامه:

(إيْلاَ حَسَّنْ جارك، بَلْ ألحيتكْ يا لمرابط[119])

فقال له والدي، بعد تنهيدة الغريب، الخائف على أهله:

أمري وأمرهم لله

هم في ضمانة سيدي شاي الله

وغير هذه الحالات كان مرحاً مزهوّاً بتجارته، منشغلاً بها، ليضيفها إلى تركته من تلك السّباخ، والفقاقير...، التي ورثها عن جدي.

ونظرا لكون البنت عندنا لا حظّ لها من الميراث، فقد كانت لا يُسأل عن حالها، ولا يلتفت إلى مرضها، ويفرح لموتها، ويغضب لولادتها، ما جعل والدي ينسى حال أختي مريْمو؛ ولكن ليس بذلك النسيان والجفاء من عمّتي، فعاطفته الأبوية، كانت تجعله يحتضنها مثلي، ويأتي لها بالهدايا والعطايا، عند عودته من تجارته.

---

[117]- عبارة حسّانية، معناها ما وقع في البلاد؟

[118]- أرقاج لفظ حساني معناه الرجل.

[119]- مثل تواتي مشهور، يضرب لمصير الاثنين معاً، إذا بلغ الأول، فعلى الثاني أن يستعد لمصير الأول.

أما أنا فقد زهدت حقاً في ذكرها، واقتصدت فعلاً في وصف حالها، لكونها مكثت ببيتنا، حتى تعذَّبت وأصابها البوار ولم تتزوج، لاقتصاد أهل القبائل الأخرى فيها، نظراً لانعدام حظّها من ميراث السّباخ.

وبعد أن تمرّستُ على الحبو، و صرت شيخاً ماهراً فيه، بل ولا يشق لي فيه غبار، اهتديتُ إلى أمر آخر، ولعلّه المشي، فأوّل ما بدأتُ به، أن حبوتُ إلى حائط طيني بسقيفة بيتنا، ترتسم فيه آثار أصابع البنّاء، المشبّه بآثار جرجرة أصابع خالتي لالّة باتي على رمل البيت، وقت ذكر الضدّات. عندها بدأتُ أمدّ الخطوة والخطوتين، ويداي متسمرتان على الحائط، وبالمراس والدربة، تشيّختُ على المشي مع الحائط شيئاً فشيئاً، حتى جاءت المرحلة الحاسمة، فأوقفتني أمي في وسط السّقيفة، وجلستْ أمامي على بعد قدر ما قامت به عند أوّل الحبو، وصفقتْ لي تصفيقة بكفيها، كتصفيقة الطّبل.

كانت رجلاي خلال ذلك أشدّ ما تكون تسمراً بالأرض، وقد غاصت مقدمتهما في الرّمل، ما جعل تقدّمي بالخطوة باطئاً، فتقدّمت خطوة، وسقطت على رمل بيتنا، فتمرّغ وجهي في التراب، كتمرغ التّمرة المعسّلة في التراب، وقد دعاني الأمر حقاً للبكاء، وبكيت، فسمعت ضحكة طفولية من الدّاعلي، والأكيد المؤكد عندي، أنه كان على بعد خطوات مني؛ لكن لا أستطيع الجزم، هل كانت ضحكته واعية لما أصابني؟، أم أن المنظر لا يخلو من طرافة وفرجة حقيقة، تدعو الناظر إليّ كيفما كان، لأن يضحك حقاً. بعدها مسحت أمي بباطن عباءتها وجهي، فقالت لي مبتسمة ابتساماً، غلبها فيه ما رأتْ من حال وجهي قبل مسحه:

تكبر يا ولدي أو تنسى

مازال، مازال، مازال

لا زال ينتظرك الكثير يا ولدي

بقي الحال بي هكذا، أقوم وأحاول فأسقط، حتى كدت أسأم، غير أن تشجيع أمي، واستعجال عمّتي بالمشي، كان يطرد مللي من محاولاتي الفاشلة، وأخيراً نجحتُ في المحاولة، فسمعت زغردة مولولة من قامو تخترق طبل أذني، فتبسّمت عمّتي نفوسة، وقالت بدعابة بداهتها الحاضرة المضحكة:

راهْ أتْخَطّا حاسي بليس[120]
أنْ شاء الله يَتْخَطّا الصّراط
فالتفتت أمي مبتسمة لقامو وقالت لها:
أنت كذلك يا قامو
ترين خير الداعلي إن شاء الله
فأراقت عمّتي نفوسة رشّات من الماء بأصابع يدها، بين رجليَّ، هو كانتفاض يدي والدي بعد الانتهاء من وضوئه في بداية نفضتهما الأولى، وقد رأيت منها مثل ذلك الرّش تماماً بعد أن كبرت، فقد رأيتها مراراً، ترش الماء بأصابعها على عتبة بيتنا، لدى مغادرة أبي للقصر متوجهاً لبلاد السودان، وهو فألٌ كانت تستعمله وتداوم عليه كل يوم صباحاً عند عتبة البيت بعد فتحه، حتى يعود والدي.
وبعد أن تيسرّ لي التقدّم بالخطوة والخطوتين، سمعت عمّتي تقول لي مشجعة ومبتهجة:
بهذه والأخريات التي تأتي بعدها يا ولد خويا
لا أحد يستطيع أن يقترب من سباخنا
وفقاقيرنا، ومطاميرنا
عندها عرفتُ أنّي دخلتُ في زمرة الماشين بالمملكة، ولم أعد من الحابين فيها.
بعد عامين، وفي أحد أيام ربيع ذلك العام، يكون الداعلي هو الآخر قد بلغ يومها أربعة أعوام، كنت قد بدأت أميّز لون وجه أمي وخالتي النّائر، عن لون وجه عمّتي البشني، ولون وجه قامو والداعلي المختلف تماماً عن لون وجه أمي وخالتي وعمّتي، دون أن يسمح لي سني، بطرح تساؤلات عن هذا الاختلاف والتغاير اللّوني بأقرب المقربين مني.
أقيمت لي عند هذا السنّ مناسبة تسمّى الفطام، والأكيد المؤكد أن بداياته الأولى، عكّرت صفو مودّتي مع أمي، كتلك التي وقعت بيني وبينها، في فترات الوحم أثناء الحمل. وكان أوّل عمل اهتدتْ إليه . مكرهة أختكم لا بطلة . أن وضعتْ قليلاً من الصِّبر المرِّ، على حلمة ثديها، كوضع الحنّاء المسحوقة الخضراء على الجرح ساعة

[120]- لقد تخطى بئر إبليس.

شرطه، فامتعضتُ منه، وأحمرّ وجهي، وانقبضتْ جبهتي، وانغلقت عيناي، فكانت أمي تتأذى من ذلك المشهد، الذي يصيبني من مرارته، لكنّها تسلي نفسها، بأنه شرّ لابد منه، فقالت لي في نفسها:

الذي يريد الزيوان والقلوان يا ولدي

عليه أن يصبر على الفطام

سوف تكبر وتنسى

بعدها طلبت أمي من عمي حَمَّو قرب هذه المناسبة، لأن يذهب لإمام القصر سيد الحاج لكبير، الذي يكون قد فتل لي خيطين، واحد منهما أبيض، والآخر أسود، وعقدهما سبع عقدات، يسمّى بعدها هذا الخيط، في أحزاب وشريعة عمّتي نفوسة بخيط **(قُلْ هَوّ الله)**.

كما كتب لي بعض الآيات من القرآن على بيضة محدّجة لكي آكلها، فأقاموا لي وليمة صغيرة للفطام، تسمّى لَكْرامَة، فأحضر عمي حَمُّو ذلك الخيط المفتول لأمي، وتولت عمّتي نفوسة تعليقه في رقبتي.

الزقاق الرابع من قصبة القصر الطيني

كان تعلم المشي بالنسبة لي بمثابة التأشيرة التي أشّرت جواز سفري لاكتشاف العالم الخارجي، ولما قُدّر لي مغادرة هذا البيت، وبالتالي تخطي عتبته الملساء، وبابه الخشبي راجلاً دون حمل، فها أنا ذا أتخطّى عتبة بيتنا، في ذلك الصباح السّعد السّعودي من منازلنا الفلكية الفلاحية، لأجد نفسي في وسط زقاق ضيّق مظلم، فُتحتْ في سقفه كوّة صغيرة، كانت الشّمس تدخل منها، في ذلك الصباح، لترسم على الأرض دائرة صغيرة بحجمها، كان شعاعها بين الكوّة والأرض يزداد وضوحاً، نظراً لتطاير الغبار، ما يجعله واضحاً وجلياً، بين سواد الدّخان المترسّب على جدرانه.

تخطي عتبة بيتنا ماشياً، تبدأ بطبيعة الحال لزيارة الجارات مع أمي، لمّا كان يعنُّ لها غرضٌ من الأغراض خارج البيت، أو تقوم بمعاونة جارتها أمبيريكة زوجة سيد الحاج لعوج، في فتل الكسكس، أو المَرْدود[121]، أو في جلب جذوة النار من عندها بالجريدة. فكم من مرّة كنت أمسك سبابة يمنى يدها بيدي، فنزور بيت جارتها هذه، هي من صديقاتها العزيزات، اِمرأة ليست بالطويلة، لكنّها في الوقت ذاته ليست بالقصيرة، بمعني ذلك القصر المذموم في قامة النّساء، غير أنّ إشراقة وجهها، وذكائها الوقّاد، الذي يدركه الفطن، من عينيها الوقادتين، ينضاف إلى هذا حضور الأنثى فيها بكثافة، ويُخلط كل هذا عندها بتابل الذّائقة الجميلة التي وهبت لها باقتدار تام، في تخيّر ألوان إزارها، وعباءتها، وخَنْثِها، مراهنات تجعل زوجها سيد الحاج لعوج، غير مخطئ في اختيارها، وينطمس عنده الالتفات إلى طولها.

وكيف لا وقد قضى مدة كبيرة في حرب لندوشين(الحرب العالمية الثّانية)، كان يقول لنا أنّ تعرّج رجله اليسرى، يرجع إلى تلك الثلوج الباردة التي كابدها هناك في تلك الجبال الباردة، وأنّه بات ليالٍ في جبالها المثلّجة، يتعشّى على بالخبز والسّردين.

كما كان يذكر لنا، أنّهم عندما رجعوا من فرنسا في البواخر إلى ميناء وهران، أصدرت السّلطة الفرنسية حينئذ أمراً بعدم خروج ومرور الأهالي بالشّوارع التي نزلوا بها، حتى لا يندهش النّاس لفرط ما أصابهم في محنتهم، من كثرة المعطوب، ووفرة المكسور، والسّواد الأعظم من ذوي العرج البيّن، ناهيك عمّن كان عرجه خفيفاً. وإن كانت حرب لندوشين قد أفقدته التّوازن في رجليه، إلا أنّها أكسبته دربة ومعرفة بفنون

---

[121]- مفتول كالكسكس؛ لكنه غليظ.

الطّبخ، والذّوق، واللّباس، لا توجد عند أنداده بالقصر، فتلمذ زوجته أمبيريكة عليها، حتى أضحتْ مميزة بين نساء سلطنتنا الزيوانية.

ولقد عرفتُ وأيقنتُ جيداً علاقته بالحرب العالمية الثانية، عندما كبرتُ وقرأتُ، فتوصّلتُ له بذلك الظرف المانداوي(الحوالة)، المطبّع والمختّم بالحرف اللاّتيني الأحمر. هذا الظرف الذي كنتُ أشمُّ فيه بشبق طفولتي، رائحة العطر الباريسي، الذي ختّمته تلك الموظفة البريدية الباريسية الشّقراء، فاخترق عطرها الباريسي القارات، وعبر البحار، والسّهول، والهضاب، والجبال، وعرق الرّمل، والحمادة، والرّق، حتى وصل مملكتنا الزيوانية، فسبحان الله.

فإذا ما خرجتُ من ذلك الزقاق الضيّق، قابلني زقاق واسع مسقّف، يدور بالقصبة من الداخل على جهاتها الأربع، مشكلاً ما يشبه الحزام، يُدعى في اللهجة القلقالية[122] أسَرْدايَر[123]، كان سكّان القصبة يستعملونه للتبرّد زمن الصيف، لوجود الثقوب في سوره، التي تلمّس فيها السّكان دخول الهواء من الخارج، بعد أن كان الآباء والأجداد يستعملونها للحماية من غارات القوم[124]، والبرابر، بالمشافر والبنادق البدائية، في أيام المسغبة.

يقابله من الخارج خلف سور القصبة، خندق يسمّى أحفير[125]، هو الآخر كان يملأُ بماء ساقية الفقّارة، خلال تلك الغارة والمحاصرة، ما جعل المهندسين الأوائل للقصبة، يحفرون في كلّ بيت منها بئراً للماء، يكون زاداً لهم، وكفايةً عن الخارج المحاصر من الغزاة، كذلك الموجود برحبة شيّاهنا، إلى أن تُدفع البَذْرَة[126]، أو يستنجدون بقبيلة أولاد زَنَّان[127]، مقابل مثقال، وأربع أوقيات، وست موزونات[128].

وما أن تبلغ بك قدمك منتهى أسَرْدايَر، حتى يقابلك المشور[129]، المقابل لباب القصبة الكبير والوحيد من الدّاخل. صُنع هذا الباب من أخشاب جذع النّخيل المتراصة المتينة، ثُبتتْ فيه من الخلف، ثلاثة أحزمة حديدية، مشدودة بمسامير حديدية

---

[122]- من أسامي لهجة أهل توات

[123] - كلمة زناتية، تعني الزقاق الدائر.

[124]- تنطق القاف هنا، جيماً قاهرية.

[125]- الخندق.

[126]- الضريبة.

[127]- من القبائل التديكلتية بمنطقة أولف، عُرف عنها الشجاعة والزود والنجدة، حتى أضحت كابوساً يخيف الغزاة.

[128]- موازين قديمة.

[129]- مكان مسقف مقابل لباب القصبة من الداخل، يستعمل لاحتماء الحراس.

تقليدية، صنعها حدّاد من قبيلة لَمْعَلْمين القاطنين بصحراء الملثّمين، يكون قد جلبها أبي، أو زوج النّايرة بنت عيشة أمباركة من بلاد السّودان.

وقد كان الحزام الحديدي الأوّل في أعلاه، والثّاني في منتصفه، والثّالث في أسفله. تخلد إلى جانبه حجرة كبيرة، ملساء على ظهرها، ضخمة في شكلها، كان طول تدويرها أكثر ما أقدره على أية حال، كطول قنينة النّخلة المقطوع عنها جذعها، المستعملة للدّنْدون عند العبيد أهل قَرْقابو.

وكانت بعتبة ذلك الباب، حجرة مستطيلة الشّكل رمادية ملساء. كان سكّان القصبة يتخذونها مشحذةً لسكاكينهم، لذبح الأضاحي والدّجاج، في الأعياد والمناسبات.

وأنت تخرج من الداخل، من ذلك الباب الوحيد للقصبة، لا بد لك أن تمرّ على قنطرة، يظهر على جانبيها أحْفير، تتوتّدُ عند نهايته من الجانبين، برجتان عاليتان مشرّفتان، بينهما سور عالٍ، تعلوه شرفات هو الآخر، كانت تلك الشّرفات ترتسم أشعة الشّمس الصباحية المشرقة، وبنفس القدر والحجم، على الحائط المقابل له من تلك السّاحة الفسيحة الفاصلة بينهما.

وقد كانت القنطرة مجلساً محبباً لأعيان القصبة، ولا سيّما آخر الضّحوة في الشّتاء، وأوّلها في الصّيف، بعد عودتهم من سباخهم، بعد مراقبة سقي حرثهم، وربط حميرهم بمرابطها.

كما كانوا يجلسون على تلك القنطرة بعد المغرب، حين يُصلون المغرب بمسجد القصبة، في أيام الصّيف المعتدل، أما في الشّتاء فكانوا يجلسون بعد المغرب بالمشور المغطّى، الذي كان الحرّاس يحتمون فيه في أيام الغزو.

نزلت القنطرة المائلة نحو الأسفل، حتى بلغتُ السّاحة، وأنا متمسكٌ بسبابة أمي، التي كانت تذهب كل صباح لبستاننا المحاذي للقصبة المسمّى أجدل[130]. فما إن عبرت القنطرة، حتى وجدتُ عدداً غير قليلٍ من الصبيان كان من بينهم الداعلي، يلعبون لعبة الغميضة[131]، فأغراني المنظر، فما وجدتني إلاّ أن تخليتُ عن سبابة والدتي، بالرّغم من عشقي لمسكها.

---

[130]- بستان صغير، يكون عادة قريباً من السكنى بالقصر، أما السباخ فهي بعيدة عنه.

[131]- وهي لعبة طفولية شائعة بقصرنا وناحية مملكة زيواننا، وذلك بأن نعصبَ لأحدنا عينيه بعصابة سوداء، بحيث يدور حوله الصبيان، محاولاً المسك بأحدهم.

هرولتُ نحو أولئك الصبيان، ولما تقدّمت نحو الخطوتين، جذبتني أمي من ظهر عباءتي البيضاء الفضفاضة المغبّرة، والموضّرة بوضر الدسم، فعبّرتُ لها عن رغبتي في اللّعب معهم بالبكاء. كنتُ خلال هذا البكاء واقفاً أضرب بقدمي على الأرض، محدثاً طبطبةً، كطبطبة الطّبل المجلّد بجلد الماعز، ولما رأتْ أمي شدّة تعلّقي، أوصتْ عليليل ولد لعوج والداعلي بي خيراً. فجلستُ بجانبهم على ركبتي، وقد كانوا يتحلّقون في حلقة دائرية، كانت بجانب السّاقية، يلعبون لعبة الحفّيرة[132].

اكتشافي للعالم الخارجيخارج أسوار القصبة، لم يتعدَّ تلك الساحة، وبستاننا الأجدلاوني، غير أن ما يمكن رصده في هذا المحيط الأولي، أني كنت أرصد اختلافاً بيناً، في لون الصبيان، وسكان القصر، الذين كانوا يعبرون هذه الساحة، وقد ظهر لي من اختلاف ألوانهم، ما قد عنّ لي وقت فطامي، فسألت نفسي سؤالاً طفولياً بريئاً، لم أذهب بعده طويلاً:

لماذا يختلف لوني ولون أعليليل، عن لون الداعلي؟

في صباح أحد أيام الشتاء الباردة، خرجت رفقة الداعلي نتشمس وننعم بدف الشمس بالساحة المحاذية للقصبة، وبينما نحن نرتعد من شدة البرد، إذ مرّ علينا رجل كبير السن لا نعرفه، يلبس عباءة فضفاضة، تعتمر رأسه قلنسوة حمراء، فتوقف عندنا، ظننا أولاً أنه يستعطف رجفتنا ورعدتنا من البرد، لكنه سألنا بلهجة مفهومة؛ لكنها غير معتادة عندنا، وقال لنا:

بالله عليكم يا ولاد

فين لمرابط التاجر ولد عم الغيواني؟

الذي يسكن ثوى غادي[133] في تونس

فعرفنا أنه يسأل عن والدي، وأن الغيواني هو ابن عمومتنا، الذي كثيراً ما جرى اسمه على لسان عمّتي في حديثها عنه مع والدتي، فقلت له:

إنه والدي؛ لكنه ببلاد السودان

---

[132]- وهي اللّعب بنوى التّمر اليابس، الموضوع في حفرة، قد يُشبّه عمقها بما يشبّه بطول ظلف الجحش، في شهره العاشر، حيث يُضربُ النّوى، الموضوع في تلك الحفرة، بحجر صغير يدعى الدَّق، يكون الفائز منهم، ذلك الذي طار له منها، أكبر عدد من النّوى.

[133]- ثوى غادي في لهجة أهل تونس تعني هناك.

وتلعثمت بعدها، ولم أنبس ببنة شفة

فقال له الداعلي:

أخوه سيدي حَمُّو موجود

انطلقنا أنا والداعلي مسرعين إلى مصريتنا البرّانية، لنسأل عن عمّي حَمُّو ونخبره بالسائل، لكنا لم نجده، ووجدنا باب المصرية مغلقاً، فخمّنا أنه ذهب للسباخ، ليتفقد أعمال الحرث.

عدنا إليه وهو مسمّر في مكانه، وقد ركن إلى حائط مشمسّ، و واعدناه بأننا سوف نخبر أمي وعمّتي، انطلقنا حينها نحو بيتنا بالقصبة، بتلك السرعة التي انطلقنا بها للمصرية، وما إن بلغنا باب بيتنا، أصدرت أنا أولاً:

أمي، عمّتي

وأصدر الداعلي ثانياً:

لالّة خرص الميّة، لالّة نفوسة، لَالاَيَاتي

كانت والدتي ساعتها قد ذهبت عند جارتها أمبيركة، ولم تبقَ غير عمّتي، التي وجدناها متكوّرة تحت غطائها، كانت متغطية تماماً ساعة وقوفنا أمامها، هي لم تكن نائمة نوماً عميقاً قطعاً؛ لأننا رمقنا تحرك رجليها تحت الغطاء، رفعتْ قليلاً من غطائها قبالة وجهها، وقالت لنا:

ما بكما؟

فتسارعت أنا والداعلي في الإجابة؛ لكنه فاقني لكبره، وقال أولاً وقلت متأخراً:

هناك ضيف غريب؛ لكن لونه كلون أهل قصرنا، يريد والدي، ولما أخبرناه بأنّه ببلاد السودان، تفطن الداعلي لمناداة عمّي حَمُّو، لكنا لم نعثر عليه بالمصرية.

نهضت عمّتي من تحت غطائها، واستوت جالسة، بينما لا زال منتصفها السفلي مغطى، وقالت بتعجل:

ثم ماذا قال لكما؟

تسابقت أنا والداعلي في الإجابة كذلك، وفزت بالإجابة بدءاً، وقلت لعمّتي:

ذكر لنا اِسم رجل اسمه الغيواني

وأكمل الداعلي يقول:

ومن خلال كلامه الغريب والمفهوم، نطق بألفاظ لم نسمعها من قبل، كـ ثَوّى غادي أشارت عمّتي لنا بيدها اليمنى، إلى الانتهاء من الكلام، وتبسّمت وقالت متهكمة:
أَهَههههنْ...
يا حسراه على الغيواني وأيامه...
كانت أمي للتو، قد رجعت من عند جارتها أمبيريكة، فسألت عمّتي عن الخبر، فأبلغتها عن الرجل التواتي التونسي الذي جاء يسأل عن والدي.
عندها تفطنت أنا و الداعلي، أننا تركنا الرجل ينتظر الجواب بالساحة، وما إن عدنا إليه حتى وجدنا عمّي حَمُّو قد عاد من تفقد السباخ والتقاه، ورحّب به، وذهب به للمصرية، وقدّم له ما يقدّم من قِرى للضيف عندنا، كالسَّفوف والحليب، وأخبرنا عمّي حَمُّو، أن هذا الرجل هو من القصر الفوقاني، وأنّه اغترب بتونس، وتزوّج هناك بتونسية، وأن ابن عمنا الغيواني، قد أوصاه بأن يمرّ علينا ويبلغنا السلام.
كان علم عمّتي بقدوم الضيف، وعلاقته بالغيواني، يحمل فضولها في معرفة أخبار الغيواني هناك، فكل ما تعلمه عنه لحد الآن، أنه غادر مملكتنا الزيوانية عام الجراد والنكسة التي ولدت فيها، وأنه قبل ذهابه كان غيوانياً مسرفاً على نفسه في حب غناء الشلاَّلي.
صبرتْ عمّتي على انتظارها حتى جاء عمّي حَمُّو ليحمل الغذاء مع أمبارك، فسألته عن أخبار الغيواني، فقال لها عمّي حَمُّو:
بحسب ما ذكر لي صاحب القصر الفوقاني، أن الغيواني قد استوى له ظهر الفرس، وتزوج بعد خروجه من القصر بعام، تونسية تُدعى منوبية، وبحسب خبر المخبر، أنه تواعد معها خلال حملها، إن هي أنجبت ولداً فالتسمية تكون لها، وقد اقترحت محرزاً، وإن هي انجبت بنتاً، فالتسمية تكون له، وقد غلب حظه حظها، فأنجبت بنتاً، فسمّاها على أمه أَمِيْزَارْ رحمها الله.
كانت قامو ساعتها تنزل القدر من على ثالثة الأثافي، تركت القدر يبرد قليلاً، وتناولت الكلمة قائلة:
لم يكن سيد الغيواني مخطئاً، في تسمية ابنته على أمه
فقالت لها عمّتي:

لقد ماتت والدته أميزار بعد خروجه من القصر عام الجراد بشهر، ويومها كان في طريق القوافل، ولم يصله خبرها، ولم يحضر لدفنها، ما جعله متحسراً عليها، فخلّدها بابنته.

كنت مع الداعلي، ننظر ونسمع رواية عمّتي، والتي كانت رواياتها في كل مرة، لا تخلو من باعث على التفكير:

فقلت في نفسي:

ليس الأبناء من يسمونهم آباؤهم على أجدادهم كحال تسميتي فحسب، بل حتى البنات لهن من اسم جداتهن نصيب.

الزقاق الخامس من قصبة القصر الطيني

ذات ربيع، صادف نزول والدي بيننا، لحضور زيارة الولي الصّالح الشريف مولاي الرّقاني[134] برقان، والتي كان يحرص كل عام في عودته من تجارته ببلاد السّودان لحضورها تراخياً أو استعجالاً، وقد كنت يومها أبلغ الخمس سنوات إلا قليلا، وتحديدا على وجه الدقة، أربع سنوات وخمسة شهور.

وهي أوّل الزّيارات وأضخمها حضوراً، وأشهرها ذكراً بناحيتنا، إلى جانب أسبوع المولد النّبوي بتيميمون[135]. ونظراً لكون أهل تواتنا، لا يعتمدون إلا على قمحهم وتمرهم في مناسباتهم، فقد أخّروا بداية موسم الزّيارات عندهم، حتى الثّامن عشر من إبريل الفلاحي، بحكم أن القمح في هذا الفصل، يكون قد بلغ آخر حصاده، فيقرأ السّلكة أولاً مع القارئين، على روح الولي المُحتفى به، بعدها يتفرّج على رقصة البارود[136]، أو إنشاد الحضرة، أو قرقبة الحديد في رقصة العبيد، لينهي ذلك الحضور بحضور تجيير الولي الصّالح بالجير، وفي الأخير يعتمر أحد البيوت مع الضيوف لأكل وليمة.

ولما صادف حضوره لموسم تلك الزيارة، فكّر في ختاني، رفقة الدّاعلي ولد مبارك ولد بوجمعة، هو على أية حال، أسود مني بكثير. كانت علامات والده ووالدته، لا تظهر على وجهه، إلا من تحقّقه، وعرف دسّاسة عرقه، قلق، متخوّف مما يصيب الحديد بجرح جلده، أو الشوك برجله، فقد نحى وبكى في الشّراطة كما روت لي عمّتي نفوسة، فما بالك في زيّانة الختان، وما أشدّها.

ففي عشية ذلك اليوم المهول، وبعد أن عملوا لنا حلاقة التْقُوْرِيْرَة[137] برأسينا، أخرجونا لزيارة ضريح ولي قصرنا، سيدي شاي الله، على إيقاع فرقة تُدَنْدِنُ الدندون، وتُقَرْقِبُ الحديد، تسمّى قرقابو **(لعبيد)**[138]، لونهم لا يختلف عن لون الداعلي ووالده ووالدته، حيث حملني مبارك ولد بوجمعة على كتفيه، رجلاي متدليتان على صدره، حتى تبلغا منتصف بطنه حذاء سرّته، بينما حملت قامو اِبنها الدّاعلي، وكان الموكب يمشي بنا

---

[134]- من شرفاء أولاد السي حمو بلحاج، تقام له زيارة مشهورة، موعدها السنوي، الفاتح من ماي.

[135]- مدينة سياحية مشهورة، تعرف تاريخياً بقورارة، تقع شمال ولاية أدرار.

[136]- وهي رقصة شعبية دائرية بالبنادق.

[137]- وهي حلاقة دائرية، تدور بالرأس، بمقدار خطّ الطّومار، وهو مقدار أربع وعشرون شعرة، من شعر الدّواب.

138- إيقاع فلكلوري إفريقي، يشبه الديوان.

في بطء وأناة، كانت تتخلل ذلك الموكب المهيب، دندنة الدَّنْدون، وقَرْقَبَة الحديد من العبيد، وزغاريد النّساء المولولة، وتَضَراي من قامو:

اللهْ أمْعَا سيد لسياد

اللهْ أمْعَا ولد سيد الشيوخ

اللهْ أمْعَا ولد سيد لَقْبَايَلْ

اللهْ أمْعَا قبيلة أولاد لَجْوَادْ

اللهْ أمْعَا القايمين

اللهْ أمْعَا اللِّي مَا أيْقَبْحُو

اللهْ أمْعَا اللِّي مَا أيْسَفْهُو

أو مَنَهْنَا حتى لواد تَسَاليتْ[139]

أخيراً ختمتها قامو بزغردة مولولة:

لو لو لو لو لوييييي...

كنت اسمع ألفاظ من هذا المدح الغادق، الذي يخصّ قبيلتي، وكانت تستوقفني فيه ملفوظات، أسمعها ولا أعقلها:

ما المقصود بالسيّد؟

وما معنى سيد لسياد؟

وما يكون لفظ الأجواد؟

المهم مشى الموكب بنا حتى وصلنا عتبة ضريح سيدي شاي الله، المجيّر بالجير الأبيض النّاصع، فأجلسونا عند عتبته الخارجية، على دكّانة ملساء، رفقة صديقي ومشارك خوفي وروعي الدّاعلي. فوضعوا لنا الحنّاء في أيدينا وأرجلنا، من طرف أكبر الشريفات بالقصر، وقد كانت تلك الحنّاء موضوعة في صبّارة يُسمع لها أزيزٌ لتحرك عروتها، كان هذا الأزيزُ يختلط مع تلك الدَّنْدَنَة والقَرْقَبَة أثناء ذهابنا وعودتنا. بعدما تعشيت رفقة صاحبي، وتجاذبنا أطراف الحديث، حول ما ينتظرنا في صبيحة غدنا، قلت للدّاعلي مداعباً بدعابة لا تسلم من خوف:

نتمنى من الله أن يهوّن علينا

---

[139]- مدينة تقع شمال مالي.

حرّ الموسى والشَقْفة
فقال لي صاحبنا، وهو يستغرب المتوقع:
كيف عملنا في الشراطة
فكيف الحال في الختان
هيهات الثانية أصعب من الأولى
كانت حكايات الذين جرّبوا الأمر قبلنا من الصبيان بالقصر، مخيفة ومروّعة بالنسبة لنا، ولا سيّما للداعلي، وأكثر ما روّعني، وأغمى صاحبي، تلك الحكاية المكذوبة التي حكاها لنا صديقنا، مِيني ولد بَكَّةَ. فقد كان أمكر الصبيان بيننا، في تصوير المشاهد الصغيرة إلى كبيرة، نظراً لحضور البداهة في حذقه، وهي صفات وراثية، ورثها عن أمه الطّارقية بَكَّةَ، التي جلبها معه والده من بلاد السّودان.
حيث كان بياضه غير بياضنا، وشعره غير شعرنا، اكتسب من والده التوّاتي، السّمرة المفتوحة عند جيّدنا، المصهّدة بحرّ قيظ صَمَايِم صيفنا، المحروقة ببرودة دجنبرنا الجاف. كما ورث من أمه نضارة طلعته، ونعومة ملمس شعره، وبياض أسنانه.
فقد كان يقصّ لنا، ولا سيّما عند اقتراب موعدنا، من أن الزيّان سوف يزيننا بالقادوم والمنجل، وكانت هذه الحكاية المزعومة، تجد تصديقاً من سذاجتنا الطفولية البريئة، بل وأكثر من الدّاعلي.
بعدها أوكلتُ أمري إلى دَنْفاسَتي ووسادتي، وأسلمتُ نفسي للنّوم، لكنّ تلك الأهوال أقضَّتْ مضجعي، وأرقَّتْ ليلي. وما زاد من خوفي وخشيتي ما رأيته من كابوس المنام. فها هو لمعَلَّمْ يدخل جلدة عضوي الذكوري في الشقفة، ويرفع يده حاملاً القادوم، وينزل على لحمتي، كنزول أمبارك ولد بوجمعة بالقادوم الحاد، على عظمة فخذ النّعجة العاقر. ولما بقيّت لحمة ملتصقة، طلب من كان بجانبه، فأعطاه منجلاً طويلاً ضخماً، فقطع ما تبقّى من لحم مشدود بها.
فقمتُ من نومي مهووساً، أتصببُ عرقاً، فقد اختلطت رائحة عرقي، برائحة عرق الداعلي وإبطه...، وكم كانت فرحتي كبيرة، عندما استيقظتُ، وعلمتُ أنّ الأمر كان كابوس منام، بالرّغم من يقيني الجازم بما ينتظرني في صبيحة الغد، وقد كان عزائي الوحيد في ذلك كالموت، كل النّاس سالكوه، فقلت في نفسي مسلياً:

(لست منزولاً، الموت بين العشرة نزاهة وفرجة)

كانت كثرة العرق المتصبب من صاحبنا، لفرط خطبه وروعه، لافتة لي بالالتفات إليه، خلال استيقاظي؛ لأنّه كان ينام بجانبي، بعدها سمعته يتخيّل في نومه، ما ينتظره من أمر غده، وكأني به في مجزرة الزيّانة، ولسان حاله يقول:

يامي...يامي...يامي...

أي...أيبي...أيبيبي...

أح...أحح...أحححح...

يامي...يامي...يامي...

أعادتني أمي إلى وسادتي، التي قد تبلل ظاهرها من عرق كابوس مشهدي المنامي، وهي تعلم روعي وشدّة خشيتي، وبدأتْ تطبطب طبطبات خفيفة، بكفّ يدها على خدي، كنت أحسّ برودة خفيفة لخاتم الفضة، الذي كان في إبهامها، بالرغم من أن الفصل كان زمن الاعتدال الربيعي من الجوّ، إلى أن راودني النوم أو راودتُه عنوة فنمتُ.

في صباح ذلك اليوم المشهود، استيقظتُ سامعاً لضجيج النسوة الصاخب، وشاماً لرائحة الكسكس المفوّر المختلط برائحة أم الناس ببيتنا، فألبسوا لكل واحد منا عباءة بيضاء، خيّطت بقيطان. تنفتح فيها من الأمام، فتحة مثلثية الشّكل، تتسع لدخول الرّأس، وأداروا على رأسينا قطعة شاش بيضاء، من كتان الحريشة البيضاء، وكحّلوا عينينا بالكحل، وألبسونا تمائم مربّعة من الكتّان الأبيض، وضع معها مسمار حديدي صغير، في كل مرّة تحرص عمّتي نفوسة على وضعه، كما وضعوا صرّة أم الناس، المشدودة بخيط في رجلنا اليمنى.

كانت شمس ذلك الصباح الصاخب، قد أكلت ثلث حائط رحبة بيتنا، عندما جاء الزيّان، وهو يحمل سماطاً صغيراً، من الجلد الأحمر المدبوغ، رفقة عمّي حَمُّو، وثلاثة رجال، لم يسمح لي هول الموقف من معرفتهم، ولا أن أعطيّ تفصيلاً دقيقاً عنهم. فحملني عمّي حَمُّو، فضمني إلى صدره، ممسكاً بيديه على ثنية ساقي بفخذي، تاركاً فرجة بين رجليَّ، المثنيتين المطويتين، تسمح للزيّان على راحته، للقيام بالمذبحة.

فوضع أحد الرّجال الثّلاثة، الذين لم أتبين أمرهم، بيضة مسلوقة في فمي، وغطّى الثّاني منهما وجهي بمقدّمة عباءتي، فقد كان في هذه اللّحظة عمّي حَمُّو يقبض على رجليَّ المفتوحتين، كقبض أمبارك ولد بوجمعة، على خروف معلوف، يخشى قيامه من حرِّ الموس أثناء ذبحه.

كل ما يمكنني وصفه، أنني أحسستُ يداً تتلمّس جلدة مقدمة عضوي، ففتلتها كما تفتل ألياف النخل لصناعة الحبال، حتى غدتْ كفتلة قنديل، وأدخلتها في ثقب شقفة حديدية، يمنع خروج الحشفة منها، فشعرت بحرارة الحديد الحاد، وهو يقطعها، كان أوّله أهون عليّ من آخر قطعه.

كان بكائي مغمغماً بالبيضة التي في فمي، وقد تناثر من صفارها قليلاً على الأرض، حيث كان الدّم ينهمر مني كشلال ساقية، أو فقّارة، فتبتلعه رمال الأرض العطشى، حتى خلت نفسي أسبح في دماء مجزرة الختان، فقال لي عمّي حَمُّو:

عندما تكبر سوفتنسى الهم يا ولد خويا

الحمد لله من الذي مرَّ

وما هو آت أكبر

كانت تلك المنامة القولية، التي أصدرها الدّاعلي في نوم الأمس، تتكرر وبنفس الشكل معه في هذا الصباح، وهو بين يدي الزيان:

يامي...يامي...يامي...

أي...أييي...أيييييي...

أح...أححح...أححححح...

بعد أن مرّت علينا أهوال ذلك المشهد المشؤوم، ونحن نردد آخر سمفونيات البكاء، قدّمت لي أمي وللداعلي قدحاً طينياً مملوءاً بالمَرْدود، كان موضوعاً عليه نصف دجاجة، والنّصف الآخر للدّاعلي، وحتى تعدل بيننا أمي، ولا يبقى شيئاً من خاطر قامو الوفيّة لنا، أعطتْ أمي لكل منّا فخذاً، وجناحاً، ونصف الصّدر.

وبالرّغم من أنّ المردود كان من أشهى الأطعمة عندي وأفضلها على الإطلاق في وجباتنا التواتية البسيطة، كخبز أنور[140]، والخبز المبطّن[141]، إلا أنّي أكلتُ منه ثلاث

---

[140]- خبز التنور.

ملاعق خشبية صغيرة فقط، و كان من العادة، أن يُعطى لكل زائر أو زائرة لنا في محنتنا، ملعقة من ذلك المردود، الذي يسمّى مَرْدود لَمْزَيَّن.

كان توافد النساء على بيتنا لتهنئة والدتي وقامو وفيراً وغزيراً في ذلك اليوم، حتى زوجات أعمامي الكبار قد أتينَ، بالرغم من زياراتهن القليلة والمحتشمة لأمي وبيتنا، بسبب بطش قول عمّتي وطول لسانها عليهما، وقد حملت زوجة الكبير منهم لأمي تسع بيضات، فما أن رأتها عمّتي تخرج تلك البيضات من تحت إزارها، حتى قامت مسرعة من مكانها، وقالت لأمي في غير لباقة:

إياكِ أن تعطي هذا البيض لابن أخي

فالأكيد المؤكد أنهن قد سعين به للطالب إيْقشَ

وكتب عليه من خط جداوله شيئاً

وقد لاحظت والدتي، الارتباك والإحراج على زوجة عمّي الأكبر، فلطفت عليها الجو، وقالت لها بدعابتها الشريفية المرحة:

نفوسة تعرفونها من زمان

وأمرها ليس جديداً عليكما

في مساء ذلك اليوم بعيد العصر، قطعوا لكل منّا جريدة نخل خضراء بعد نزع شوكها وسعفها، خلقوا لنا منها عصى كالعكاز، تخطينا بهما على السّاقية، ثلاث مرّات معدودات، نقدم اليمنى ونؤخر اليسرى، كل ذلك بمراقبة ولو بعيدة من عمّتي نفوسة. التي كانت تحرص، على كل فأل معروف في عرفنا، وكنتُ خلال مشيتي، أمشي مفرّك الرجلين، أقبض على عكازي بيدي اليمنى، وأمسك بيدي اليسرى مقدّمة عباءتي، حتى لا تحتكّ بموقع القطع، عند نهاية الحشفة المجروحة، والتي شكتْ لي ترسّب الغبار والتراب على دمها اليابس.

---

[141]- خبز تنوري، ميزته عن خبز التنور العهادي، أن له مبطن بخليط من التمر والشحم.

الزقاق السادس من قصبة القصر الطيني

ولما كان الأمر من مطلع الصيف، وذلك بعد ختاني بشهر ونصف الشهر، أدخلني والدي للكُتّاب القرآني المسمّى أَقَرْبيشْ، رفقة الداعلي دائماً وكيف لا...، فلبسنا عباءات بيضاء ذات أكمام، ووضعوا على رأسينا عمامة بيضاء هي الأخرى، وكوّروها كتكويرها في ختاننا، كما مرّروا الكحل بالمرود في أعيننا، فأعطت أمي لكل واحد منا لوحاً مستطيلاً أملس، مصبوغاً بطين حليبي، يُدعى عند صبياننا (**صَمْصاد حَلِيْبَة**[142])، إلى جانب خصلته هذه، كانت النساء المتوحمات بالحمل، كثيراً ما يعترضن طريقنا، ويتوددن بالتوسل المُلِحّ لطلبه، بغرض أكله، والتلذذ بملوحته. كان المحسنون يجلبونه لنا من قصر بودة[143].

ثُقِّب في وسط مقدّمة كل لوح ثقبٌ صغيرٌ، وضعتْ لنا فيه خيط مسيّر من دَنْفاسَتِها، حتى يسهل علينا حمله، فتخطينا عتبة بيتنا في ذلك الصّباح الباكر، بعد أن شربنا شاينا الصّباحي وحساءنا.

فخرجنا عابرين للقنطرة، مسلمين على من فيها من عليّة القوم، وكان بينهم والدي، وأعمامي الكبار، وعمّي الأصغر، والحاج لعوج، لنجد أنفسنا في ساحة فسيحة، تمرُّ بجانبها ساقية، كانت موطناً ومرتعاً للعب الصبيان.

وبعد أن نكون قد اخترقنا الساحة وبلغنا نهايتها، لنجد أنفسنا أمام مجلس أعيان القصر، هو مجلس صففت فيه دكانات متراصة فيما بينها، يفصل بين الدّكانة والتي تتصل بها، ارتفاع بقدر أربعة أصابع الغلام قبل بلوغه، كانت تُستعمل كوسائد لوضعية المرفق لرأس النائم عليها.

كان شيوخ القصر، وكُبَّار القبائل يجلسون عليها، وهو مجلس أكبر من مجلس قنطرة القصبة في كلّ الأحوال، لكونه كان قريباً من المسجد العتيق، وما شدّ انتباهي من جلوس الشيوخ على تلك الدّكانات أمران:

الأوّل هو أحد أبناء عمومتنا المسمّى سيد الدُّولة، والذي كان من عُبَّادها، لكثرة جلوسه بها، شيخٌ تِلّمْساوي[144] اللّون، حيثما يكون تمر نخلة تِلَّمْسو الرّطب عند نهاية نضجه، حيث يصبح ميالاً للسُّمرة، من كونه أميل للاصفرار في نضجه الأوّل.

---

[142]- طين أبيض ناعم، يستعمله الصبيان لطلاء الألواح، بغرض بروز الكتابة عليه بالأسود.

[143]- يقع غرب تيمي.

[144]- من أنواع التمور التواتية.

يضع على أرنبة أنفه نظّارة سميكة بالية، كان جارنا سيد الحاج لعوج قد جلبها معه، كغنيمة حرب من حرب لاندوشين، لأحد الجنود الألمان هناك، ونظراً لضعف بصره، التمسها قنديلاً لبصره، هو هجين في لونه، وشعره، وملامح وجهه.

يُفسِّر تلك الهجنة، ما روته عمّتي نفوسة، بعظمة لسانها، من أنّ والده الحرّ سيد الهوصاوي، تزوّج بأَمَتِه بيدَارِيَّة، بعدما فقدَ زوجته الحرّة أَعْوِيْشَة في بداية شبابه، ولم تنجب له خلفاً، ففكّر في الزّواج بأَمَتِه البيدارية. حيث يتزوّج الرّجل أَمَتَه للخلافة وإنجاب الذّكور أكثر من البنات. فولدت له سيد الدّولة.

كان في شيخوخته الأخيرة، وكأنّه في بدايتها، لما ورثه عن أخواله، من متانة بنية، وصلابة عظم، غير أن اللاّفت فيه، هو حالته في طقوس تدخين التّبغ البَلْدي، و كيفية إشعاله للتّبغ، فقد كان يمسك حجرة ملساء بيده اليسرى، يُطلق عليها اللُّولويَة، وكان يقبض إلى جانبها على غَليلة[145] من غليل التّابسوت بقدر سبابة البالغ طولاً وعرضاً، كانت تلك الغليلة آخر ما اكتشفه عقل الإنسان الزيواني في إشعال النار، لهشاشة لُبّها، وسرعة الاشتعال بها، فلمّا ينزل الزناد بيده اليمنى على اللُّولوية التي بجانبها في يده اليسرى، فيحدث التقاء الزناد بظهر اللُّولوية شرارة خفيفة تنقل الاشتعال إلى لُبّها الرّخو، فتبدأ الجمرة صغيرة جداً، فيبادر إلى نفخها نفخاً هيناً، وما أن يزيد الاشتعال بها، حتى يزداد نفخه فيها.

فقد كانت نساء القصبة والقصر، يكثر ذكر اسم سيد الدّولة في حديثهن وعلى ألسنتهن كثيراً، لما كان يقدّمه لهن من نجدة الاشتعال، عندما يعنّ لهن الطهي، لكونه كان المصدر الوحيد لإشعال نار القدور بالقصر، فيكفي الواحدة منهن الاشتعال من عنده بجريدة نخل، حتى تنتقل الشعلة بينهن، عبر أزقة القصبة والقصر.

ولما يكتمل اشتعال تلك الغليلة، يضع تلك الجمرة منها على ذلك التبغ المملوء في تلك الطينة الحمراء، فيأخذ نفساً من مقدّمة القطيب الدفلي، كان نَفَسه الأوّل أقوى مما يأتي بعده، ولما يطمئن لاشتعاله، يرجع تلك اللُّولوية الحجرية وذلك الزناد، إلى

---

[145]، لب نبات التابسوت.

سماطه المشرّك الأحمر، ويضع إلى جانبهما المطوي الجلدي، الذي كان يضع فيه التبغ اليابس، وقد كان لهذا المطوي الجلدي لسان كلسان المخطوط المجلّد.

الأمر الثّاني الذي شدّني بهذا المجلس، هو أنّه كان مجلساً لجماعة القصر مع مسؤولها سيد الحاج عبد السلام، ففيه تُشرّع العقوبات، وتُدرس الملمات، وتستحضر المهمات، كما كان لهذه الجماعة برّاح، يجول بالقصر، طولاً وعرضاً، لإبلاغ الناس، بمأمورات ومنهيات الجماعة، حتى ليظهر لك وكأنه الناطق الرّسمي باسم جماعة القصر.

وقد روت لي عمّتي نفوسة بفرط فضولها، ومعرفتها بأمر القصر، أن هذا المجلس كان يُنصَّف النِّصاف من الظالم للمظلوم.

فقد تكون العقوبة بربطه في نخلة، أو قد يكون الردع أكثر لما تكون جنايته مستغلظة، فتصل عقوبة الردع إلى هجرانه في فرحه وحزنه، من كامل سكان القصر، وهي أكبر عقوبة مسلطة في تشريع جماعة القصر، وهي للزُناة، والقتلة، وعاقي والديهم بعقوق يصل بهم إلى السَّباب، أو التّلفظ بالشتائم. ومن الطقوس التي يجبر المار بها عند مروره بهذا المجلس على تلك الدكانات، هو نزعه لنعله، احتراماً ووقاراً للجماعة، كما أن الراكب على الحمار، ينزل ساعة مروره، وهي طقوس يتعلمها الصغير من الكبير.

عبرت أنا والداعلي، ذلك المجلس المهيب، لنجد أنفسنا قبالة ضريح ولي قصرنا سيدي شاي الله، لنعبر بعدها ساحة صغيرة مُدخلة إلى زقاق ضيّق، تنتصبُ في نهايته شبه المسطّحة، باب أقربيشنا، حاله بسيط، لا يعدو أن يكون سقيفة طينية واسعة، فرّشت في زاوية منها على التراب، حصيرة سعفية لجلوس سيّدنا، فتقدّمنا والدي، وأمبارك ولد بوجمعة خلفه، الذي كان يحمل تاغَرْبيتاً[146] من اللّوح مملوءة بالحليب، وكان هذا التَّغَرْبيتْ مغطى بطبق سعفي مملوءاً بالتَّمر المكسّر المسمّى السَّفوف.

ولما بلغنا الكتّاب، كان الوقت ضحىً، فدخلنا سقيفة مفضية إلى رحبة واسعة، كان سيّدنا وشيخنا وواسطتنا إلى ربنا سيد الحاج لكبير، يتخذ مجلساً وسطاً بين أعيان

---

[146]- والتَّاغَرْبيت : هو قدح خشبي كبير، يكون غالباً دائرياً أو بيضوياً.

القوم الحافظين للسلكة، فأجلسني والدي عند ركبته اليمنى، والداعلي خلفي...، وأعطاني دواة زجاجية، مملوءة بالسمغ المسوّد بسواد دخان القدر، فيحمل سيّدنا الشيخ الحاج لكبير قلمه القصبي، المبرأ بعناية فائقة، فيلقيه في جوف الدواة، حتى يهبط مقبض يدي، ويرتعد قليلاً، عن مستواه الأصلي الذي كان عليه، قبل غطس القلم في الدّواة.

فيرفع سيّدنا قلمه ويستفتح لي في أعلى اللّوح، بالبسملة والتصلية على الرّسول الكريم، ثم يترك حيّزاً بيّناً، فيخطّ لي بداية، بقوله المرتفع الخافت، متبعاً كل صوت غير مصوّت بشكل سليم، بما يناسبه من خط الحروف على اللّوح، وأوّل ما قاله وكتبه لي، وللداعلي من بعدي:

أ، ب، ت، ث،.....

وقد كان نطق الشين عنده، أصعب من نطقه بالباء، ويمضي لوحي مع جرجرة رجلي من الجلوس، حتى أبلغ آخر الحافظين المتبرك بهم، الذين كانوا يتحلّقون حول الشيخ يمنة ويسرة، ذكراً بالقول وخطاً بالقلم، وكان هذا الحال يتكرر مع جميع الحروف المعجمة والمهملة، ذاكراً لعدد نقطها بأعلاها، أو بأسفل منها، حتى يأتي شيخنا على آخرها، وقد كان الحفّاظ يتعمّدون ترك الحرف الأخير له، لتقديره، والتماس البركة فيه. بعدها وزّع أمبارك السّفوف واللّبن على الصبيان، وفتّح الشيخ مع القوم، داعين الله لي وللداعلي بحفظ القرآن وختمه.

بدخولنا للكتاب زادت معارفنا بصبيان القصر أكثر، ما سمح لنا لأن نتعرّف أكثر على ميني ولد بَكَّةَ، وبالرغم من مشاكساته وطيشه، إلا أنه كان محبوباً عند سيّدنا، لكونه يحفظ لوحه المملوء عن آخره، بسرعة فائقة. والحقّ يذكر أنّ الخجل ظلّ يركب الداعلي كثيراً، ويركبني قليلاً خلال أيامنا الأولى بالكتّاب، فسرعان ما تعوّدنا على محيطنا، وتعوّد علينا، كما أن هذا المحيط الجديد مكنني من زيادة وبداية تعمقي لمعرفة التمايز اللوني بين سكان القصر...

بعد شهر من دخولنا للكتّاب، وفي أحد الليالي التي كنا نذهب فيها إليه بعد المغرب، لقراءة السوّر القصار مجتمعين ومتحلقين، المسماة سوّر الليل، وبعد خروجنا في ذلك الظلام الذي كان يخيّم على القصر، ونحن نردد بصوت جهوري:

اللّهم صلِ وسلم على
سيدنا محمد عليه السلام
وما أن بلغنا قبالة ضريح ولينا سيدي شاي الله، حتى سمعنا صوت البرّاح يفتت سكون ليل القصر، اقتربنا منه رويداً، فإذا هو برّاح جماعة القصر، المدعو أَجْمِيْعَة، الذي كان سواده يزيد عتمة الليل سواداً، فأسند يده اليمنى إلى حائط، وهو يقول بصوت عالٍ:
أمر الله وأمر الجماعة
أتسمعو ألا الخير
هناك أَتْوِيْزَة[147] في فقّارة القصر التحتاني غداً
ليس أمبارك والداعلي وقامو وحدهم من كان لونهم أسوداً؛ بل حتى أَجميعة...
بعد هذا بأسابيع بدأ لنا سيّدنا بالسوّر القصار صعوداً، وكان ذلك عبر مراحل تذكر، كعند وصول سورة الأعلى، و(عمّ)، والرحمن، وإنا فتحنا، و(يس)، إلى أن وصلنا مطلع ثمن يستبشرون من سورة آل عمران، فأقاموا لنا مناسبة تسمّى بالسُّلوك، كتلك التي أُقيمت لنا يوم دخولنا، غير أنها تكبرها مظهراً، واحتفاءً، وعطاءً للأبناء من الآباء، من قواريط ماء الفقاقير، وما يحمل الزيوان.
ففيها كتب لي الشيخ والحفاظ بالتعاور، ثمن يستبشرون من سورة آل عمران، ثم طافوا بي حول مقبرتنا، جاهرين بالبردة، إلى أن وصلت عند عتبة سيدي شاي الله، فأعطى والدي أمري لحفيده سيدي مول النُّوبة، فزوّرني، ودعا لي عند رأس جده.
في أحد أيام الخميس التي كنا لا ندرس فيها بالكتّاب، حملني الفضول أنا والداعلي لمرافقة والده لزيارة السّباخ عصراً، فركبنا نحن الاثنين على حمارنا الأبيض المتكسّر بياضه، ورافقنا والده راجلاً ممسكاً بذيله، فانطلقنا لجهة الغرب أسفل القصر، في زقاق طويل منحدر، لا أثر فيه إلا لأقدام الحمير وحوافرهم وبولهم وروثهم، حتى بلغنا المواشير، وهي المحطة الأولى من بلوغ السباخ.
كان هديل اليمام على النخيل، ونهيق الحمير المتقطع في فضاء السباخ غالباً في تلك العشية، ويقطع إطباقها المخيف، وكنا كلما حططنا رحالنا بسبخة من سباخنا

[147]- عمل تعاوني يمتاز بالتكافل والمؤازرة.

الكثيرة والمتعددة، يسميها لي أمبارك باسمها، فهذه سبخة الفوقانية، وهذه السبخة التحتانية، وهذه **السبخة الكبيرة...**، والتي صادفنا فيها قامو تجمع حطب الجريد لطهي العشاء، وهذه السبيخة، وهذه سبخة البور، فقلت في نفسي:

حتى السباخ لها أسماء

طفنا بتلك السباخ مكتشفين لهذا العالم الجديد علينا، والذي سمعت به من يوم ميلادي، بل هناك من أربطه وقفاً بحياتي، كعمّتي نفوسة.

وبالرغم من أن أمبارك كان قليل الكلام، قال لي وهو يربت على كتفي، ويعلم أنّي لا أعقل شيئاً من غرض كلامه:

لأجل هذه السباخ المحبّسة يا ولد سيدي، قُلّل من شأن أختك مريمو؛ لأنها بنت لا ترث، ورُفع من شأنك؛ لأنك ترث، هي ملك لكم، ونحن خدم راعون لها.

كان الداعلي ينصت لقول والده بعفوية، ولما بلغ والده مبلغ قوله: **(نحن خدم راعون لها)**، ظهر لي من الداعلي، وكأنه كان سارحاً في غفلة من أمره، وقطع قول والده الأخير سرحته، فقطّب ورمش عينيه، دون أن يتفوّه بكلمة.

كان الوقت ساعتها لما كنا بسبخة البور، قد بدأت الشمس في الاصفرار، فطلب منا أمبارك، أن نحزم حزمتين صغيرتين من الحطب تكون بحجم قبضة اليد من عمرنا، لشيخ كتّابنا الحاج لكبير، ركبنا على حمارنا، ورجعنا قافلين للقصر، بعد هذه الزيارة الاستكشافية، وكان الوقت مغرباً لما شارفنا بداية أول بناياته الطوبية.

بعد عامين أو ثلاث، نكون قد قفلنا راجعين على سوّر القرآن نزولاً حتى نبلغ ما بدأنا به يوم بدايتنا، فتقام لنا مناسبة أخرى يطلق عليها الحُفُوض، يُقال لنا بعدها أننا أضحينا من الحفّاظ، يُدعى لمكرمتها النّاس حتى من القصور القريبة والمجاورة، فأُجازى بأكثر ما نلته من غنائم مياه الفقاقير يوم سلوكي.

ومن الكرنافالات التي كانت تحدث الفرجة عندنا ونحن صبيان بأقربيشنا مناسبة العَرْفَة[148]، هذه المناسبة التي كنّا ننتظر فيها لبس الجديد، لكثرة صداقتنا للقديم، حيث يزخرف لنا سيّدنا لوحة أكبرنا سناً وحفظاً، وأهدئنا طبعاً، وأوفرنا عقلاً، ثم

---

[148]- عادة تواتية يقوم بها الصبيان بالكتّاب، وتقام مرتين في السنة، وموعدها الأسبوع الذي يسبق عيد الفطر، ومثله الذي يسبق عيد الأضحى.

يتقدّمنا ونطوف معه بأرجاء القصبة والقصر، وهو ممسك باللّوح، وهو يقول عند عتبة كل بيت نقف عندها:

سنستفتحكم ببسم الله وهو خير الفاتحين

ونردد بعده:

اللّه أَمّامين[149]

ثم يقول بعدها:

ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر.

ونردد خلفه كالعادة:

الله أمّامين

ليقول بعدها:

ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً.

لنقول بعده كالعادة:

الله أمّامين

ليقول عندها:

ويذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.

لنردد بعده كالعادة:

الله أمامين

ليقول مقدمنا أخيراً بلهجة تواتية لأهل البيت:

(عَدْسو أوْ بَذْرو، أوْ لا يَبْقى شي مَنْ لَعْوايَدْ[150]).

بعدها يُعطى لنا قدرٌ من القمح، وبيضة أو بيضتان في أحسن الأحوال، أوفرينكات في آخر عهدنا، ونأتي بها لسيّدنا، فأمّا لون الفضّة، فليس لنا منه حظ أو نصيب، لندرتها وأحقيّة سيّدنا بها، لذلك عرفنا أنه كان يتخيّر الأمين المأمون منا على اللّوح.

---

[149]- أصلها: اللّهم آمين.

[150]- عدسو من العدس، وبذرو من البذار وهو الفلفل الأسود، والقول كاملاً معناه: آتوا بكل العوائد ولا تنسوا شيئاً.

بعدها يستدعي الصّغار منا، الذين لم يسلكوا، فيوّزع عليهم قدراً من القمح والبيض؛ لكنّه أقلّ مما يُعطى للحفّاظ والمبرّزين، الذين كانوا يُستخلفون علينا من طرف سيّدنا، لمّا يعنُّ له غرض طارئ، كتجهيز وغسل ميّت، أو إصابة طفل بمسّ جنون.

كما كنّا في زمن الشتاء، نأتي لسيّدنا بالحطب والزيوان من السباخ، فيوقده لنا بغرض تدفئتنا حين شتوتنا، لقلّة اللّباس على لحمنا، وما تبقى منه كان يستعمله ببيته مع أسرته، كما كان سيّدنا يعطينا عطلة فجائية تُدعى التَّحْرِيرَة[151].

وقد سمحت لنا سياحة وفرجة العرفة، لأن نعرف كل بيوت القصر ما ظهر منها وما بطن، حتى تلك التي كانت معزولة ومتطرفة، أو كان الناس يتهيبونها وتحوم حولها الشكوك، وتنسج حولها الأساطير، كبيت الطالب أيْقشَ، هذا البيت الذي كثيراً ما حدّثنا ميني عنه وعن صاحبه، من أنّه بيت تسكنه العفاريت مع الجان رفقة الطالب أيقشَ.

[151]- وهي إطلاق سراحنا قبل حفظنا، لمّا يُبشّر سيدّنا بخبر سار، كأن يولد عنده مولودا ذكراً...، أو يأتي أحد أفراد عائلته من الغيبة الطويلة، أو يتصدّق عليه من تجّار السودان عندنا.

الزقاق السابع من قصبة القصر الطيني

لم يكن الدخول للمدرسة بالقصر الوسطاني، محدداً بعمر معين، أو سن محدد، فقد يحدث وبلا غرابة، أن يتزامن دخول الطفل الذي في عمره خمس سنوات وثمانية شهور، كحالي إبان خريف هذا العام، مع دخول الطفل الذي يكبره بعامين، كما كان الأمر بالنسبة للداعلي؛ بل قد يُستنجد ببعض الأطفال، الذين هم دون هذا، أو أكثر من ذاك، ممن يبلغون الأربع سنوات ونصف السنة أحياناً، أو ممن قد يفوق عمرهم عمر الداعلي.

تستطيع أن تقول، أنها الحاجة أعوزت أهل هذا القصر، في جمع عدد معقول وقدر معلوم، يسمح لهم بفتح القسم، نظراً لما شاع في اعتقادهم، من أن المدرسة أمرٌ حادثٌ، مجلوبٌ من عوائد الكفار ودينهم، ولم يكن لآبائهم وأجدادهم به سابق صلة تذكر، أو عادة محكّمة تعرف.

وبالرغم من هذا التهجين العمري الاجتهادي، الذي ابتدعوه في دخولنا، فلن يبلغ عدد التلاميذ بالقسم أكثر من عشرة متمدرسين، قُل هذا في أحسن الأحوال، عند بداية السنة الأولى، ناهيك عن تناقصه، خلال السنوات الموالية، ليس بسبب الرسوب فحسب، إنما بسبب ندم بعض الأولياء على فعلهم، وزهدهم في تدريس أبنائهم بالمدرسة، إما لحاجتهم إليهم في بساتينهم، أو لندم فعلي قد أصابهم.

أما تعليم أختي مريْمو، وتريباتها من بنات القصر، فإياك أن تتحدث عنه؛ لأن تعليمهن بالمدرسة، كان يُنظر إليه على أنه أمرٌ محرّم، وفي أحسن الأحوال، وبعد هداية الآباء، واستغفارهم لربهم، كانوا يسمحون لهن بتعلّم القرآن في الكُتّاب، حتى يبلغن حزب ياسين، أو فوقه قليلاً.

أمام تلك الساحة المقابلة للقصبة، وبحذاء الساقية التي وجدتُ الأطفال يلعبون بجانبها يوماً، يقابلك قسمنا الطوبي، الفرق بينه وبين بيوتنا، أنّه مربع، يكاد يكون طول ضلعه، تسع خطوات بخطوة رِجل العرَّاف، له باب خشبي أملس؛ لكنه ليس كباب بيتنا أو قصبتنا، كما أن به قفل حديدي، هو الأخر يختلف عن أقفال بيوتنا ومواشيرنا التي عهدناها، وغير هذا، ففراشه وسقفه كبيتنا.

نُثرتْ به مناضد عتيقة متهالكة مستعملة، قد رُسمت عليها خرائط غير مقصودة، نظراً لتناثر حبر المداد عليها، وبأشكال شتى. أكاد أجزم من أمر تلك المناضد،

وأحسبها عدّاً، أنها في كل صفّ ثلاث مناضد. حُشر في زاويته اليمنى، مكتب للمعلم، وفي زاويته اليسرى، كانت تخلد خزانة خشبية، لها بابان، وبها رفوف، كان المعلم يضع فيها كتبنا ودفاترنا، وقارورة المداد، وأغراضاً أخرى، كعلبة مرهم العيون وغيرها. بينها وبين مكتب المعلم، سُمّرت أمامنا سبورة سوداء، هي الأخرى بالية، ترسّبت في شقوقها بقايا الطبشور الأبيض.

كنا محظوظين على أية حال؛ لأن الدولة بعد الاستقلال، قد تبنّت ما يسمى بمجانية واجبارية التعليم، والحق يذكر، أنها عملت ما وسعها الاجتهاد، في حضّ وتوعية الآباء، على أن يعلّموا أولادهم ويدفعوا بهم للمدرسة؛ لكن جهل الكثير منهم من أهالي القصور، وتعنت البعض الآخر، ناهيك عن الاستهزاء والاستهتار، الذي كانوا يسِمون به المدرسة، قد قلّل و أطفأ شعلة اللّجان البلدية التي كانت تأتي لقصرنا، بغرض تشجيع الأولياء وتوعيتهم، في أن يدفعوا بأبنائهم للتعلم في المدرسة.

المهم أن دخولي للمدرسة، كان حدثاً جللاً عندي، وهي لحظة كنت أترقّبها، كترقب أبي، وأمي، وعمّتي نفوسة لولادتي.

ونظراً لكون والدي كان غائباً ببلاد السّودان، خلال خريف هذا العام، فقد كلّف صديقه جارنا اللّندشوني سيد الحاج لعوج، للقيام بتسجيلي في سجلاّت المدرسة، مع ابنه عليليل؛ لكونه كان من المشجعين القلائل لتمدرس أطفال القصر بالمدرسة.

بيد أنّ ما أغراني وجعلني ضحيةً لشراك هذا الإغراء، وجعلني أتحمّل ثقل هذا الإغواء، هو ما كان مِيني ولد بَكَّةَ، يذيقنا من رغيف خبز كوشة[152] المدرسة، التي كنّا نشمّ رائحتها قبل أن نراها، لغرابتها وندرتها بقصرنا، وكثرة ما يظهر من محاسنها ذكراً بقول فم مِيني. ما جعلني أتشجع في القول دون خجل، أنّ الكوشة كانت من أسباب دخولي للمدرسة.

كنا نأتي للمدرسة صباحاً دون محافظ، وقد نكون بلا نعال، ونصطف أمام القسم في صفين، ويأمرنا معلّمنا البشّاري[153]، بأن نضع يدنا اليمنى، على الكتف الأيمن، للذي أمامنا، ثم نسدل يدنا، في حركة واحدة كالعسكر، بعدها يأمرنا معلمنا بالدخول،

---

[152]- الكوشة: تطلق في محلية توات، على الخبز الباريسي.

[153]- نسبة إلى ولاية تقع في الجنوب الغربي للجزائر، تسمى ولاية بشار.

الواحد تلو الآخر، نأخذ أماكننا من المناضد، ونظل بها وقوفاً، حتى يأمرنا بالجلوس، نكون عندها في هذه الوضعية، نردد جملة واحدة، وهي: **صباح الخير يا معلمي**.

هو أقرب للقصر منه للطول، سمرته مفتوحة أكثر من سمرتنا، سمين، تكرّش حتى عاد بلا رقبة، يكون أكثر ما أقدره من عمره، أنه في نهاية الشباب وبداية الكهولة، ليس بوجهه علامة بارزة تذكر؛ عدا نابه الأيسر العلوي، المطلي بالفضة. كنت أجلس في المنضدة الأمامية الوسطى رفقة الداعلي. وقد كان حريصاً على تعليمنا الحروف أولاً، وتصحيح النطق بها، فقد كانت رواسب النطق الخاطئ بها عندنا وفيرة، بالرغم من تلقينها أيانا بكُتّاب سيّدنا، غير أن أسنانه التي درد معظمها كما قلنا، كانت تخونه في نطق تلك الحروف صحيحة من مخارجها، كما كان ينطقها معلمنا البشاري، ثم بدأ لنا بتعليم الأعداد، وكيفية حسابها، سواء بالجمع وهو السهل منها، ولا سيما عن طريق وسيلة الأصابع، أو بالضرب، أو الطرح، وأخيراً القسمة، والتي استعصى ، واستغلق علينا فهمها في الأول.

كان تعليمنا الابتدائي، ينقسم إلى ثلاثة أنواع، ففي المرحلة الأولى، والمسماة بالتحضيري الأول والثاني، أو كما كان يصطلح عليه cp1 و cp2، وهي أولى المراحل الابتدائية، بعدها تدرجنا إلى المرحلة الثانية المسماة بالابتدائي الأول والثاني، ce1 و ce2 ، أما المرحلة الأخيرة من التعليم الابتدائي، والمسماة حينها بالمتوسط الأول والثانيcm1 و cm2، فقد درسناها بمقر بلدية القصور الوسطانية.

كان الداعلي وبحكم أنه يكبرنني بعامين، أسرع في الفهم مني، ما جعلني محظوظاً، في فهم عديد المستغلقات، التي كانت تحيّرني، في القراءة والحساب، فكثيراً ما كنت استفهمها منه بالبيت، أو في طريقنا للسباخ؛ غير أني كنت متفوقاً عليه، بخطي الرائق، والذي كان محل مدح غادق، من معلمنا البشاري، ولا سيما أمام والدي، يوم يكون هذا الأخير مغدقاً عليه، بعشاء دسم بمصريتنا البرانية.

لم ندم طويلاً، حتى ابتدعنا لمعلمنا البشاري اسماً، تعارفنا عليه نحن التلاميذ خفية، فقد كان يكثر بلسانه، ويتردد عليه كثيراً، كلمة مركبة تركيباً مزجياً، وهي: **ولد خالتي**، وهي عادة مستحكمة في لسان أهل بشار قاطبة، فكنت أنا ولد خالته، وكان الداعلي كذلك، وغيرنا من المتمدرسين معنا؛ بل حتى عندما يكون معزوماً عندنا،

يطلقه حتى على أبي، ويطلقه على مسؤول القصر الحاج عبد السلام، ويطلقه على إمام القصر الحاج لكبير، حتى غدا كل رجال أهل القصر، أبناء خالته.

في أحد الأيام الشتوية، والتي كنا ندرس فيها بقسمنا الابتدائي، عاد والدي من تجارته ببلاد السودان، ولما نزل بيننا، وبعد يومين من نزوله، طلب مني أن أخبر معلمنا البشاري، بأنه معزوم عندنا للعشاء الليلة، وأعطاني لأبلغه ورقة مطوية بيضاء في أصلها، ذهبت الشمس ببياضها، حتى عادت صفراء، قال لي أنه وجدها في علبة حمراء، بصحراء حَمودْيَا رَقَّان قُرب مكان يُدعى طَمَنْقو، لدى مروره مع القوافل التجارية، خلال عودته في هذه المرّة، وما قاله لي والدي، أنها مكتوبة بالرّومية، ولم يكن بينهم من التجار، ولا بقصرنا الزيواني، من يفكّ الحرف اللاّتيني، غير معلمنا البشاري.

عند نهاية الفترة الدراسية الصباحية من ذلك اليوم، طلبت من الداعلي، أن ينتظرني عند باب القسم، فسلّمت لمعلمنا تلك الورقة البيضاء المطوية، وأبلغته من أن والدي يريده أن يترجمها له عند العشاء.

عدتُ في الفترة المسائية، وما أن رآني المعلم، حتى تبسّم في وجهي، وأكثر في تلك العشية من الالتفات إليّ، حتى كان الأمر واضحاً، عند أترابي أن هناك سبباً لذلك، والأكيد المؤكد، أن لا أحد منهم قد فهم سبب ذلك، إلا الداعلي، الذي رويتُ له ما كان من أمر الورقة التي أعطاني أياها والدي، دون معرفتنا بمضمونها.

في ليل ذلك اليوم، كنا نجلس حول موقد الحطب والنار بمصريتنا، والدي، وأنا والداعلي ووالده، الذي كان قد شرع في إعداد الشاي، وبينما طقطقة الحطب في النار، تكسّر وجمة ذلك الليل الشتوي شبه المظلم البارد، حتى سمعنا طبطبة خفيفة بباب مصريتنا الخشبي، فعلمنا أنّه المنتظَر...، قام له والدي مسلماً ومرحباً، وما إن أخذنا أماكننا من جلوسنا المعتاد، حتى استعجله والدي بفحوى ومضمون الورقة.

أخرج معلمنا الورقة كما هي في طويتها المعتادة، وقال لوالدي:

هناك مِن الفرنسيين مَن له حسّ إنساني وفير، يمليه عليه ضميره الإنساني.

حنحن أبي حنحنة خفيفة، كنتُ عهدتها عليه، إبان استغلاق الأمر عليه، وقال للمعلم:

لحد الآن لم أفهم المضمون

دعني من المقدمات...

فبادر المعلم في التوضيح دون مقدمات، وقال لوالدي:

هذه الورقة عمرها تسع سنوات، هي شهادة إنسانية للتاريخ، كتبها أحد الفرنسيين الباحثين، بمفوضية التجارب النووية، المدعو **فرانسوا تيري**، لما كان بصدد إعداد التجربة النووية بحموديا رقّان، وما قاله فيها كالتالي:

Une vérité sur l'histoire

François Thierry qui a participé au programme nucléaire du saharien algérien (Reggan) et chercheur au CEA (commissariat a l'énergie atomique) a durant cette de période de préparation des travaux a dans une lettre retrouvée quelque part mis en garde sur les effets que peuvent induire les essais nucléaires sur cette région tant sur le plan humanitaire que sur des répercussions économiques sociologique et environnementales

Reggan le 10/02/1960[154]

بعد نهاية قراءة الرسالة من معلمي، تبسّم خلالها تبسماً خفيفاً، بان من ذلك التبسّم، لمعان نابه الفضي، الذي أظهرته نار الموقد الخافتة، فناوله أمبارك كأسه التالي والأخير من الشاي.

فطبطب والدي طبطبة خفيفة على كتفي، وقال لي:

عمر هذه الورقة، هو عمرك، ثم استدرك وقال:

بل كتبت قبل ميلادك بثلاثة شهور...

---

[154] - حقيقة حول التاريخ:

فرانسوا تيري الذي شارك في البرنامج النووي بالصحراء الجزائرية(رقان) وباحث بمفوضية الطاقة الذرية، كان له خلال هذه الفترة تحضير لاشغال، وحذر في رسالة وجدت في مكان ما من الاثار المحتملة التي يمكن ان تسببها التجارب النووية على هذه المنطقة على المستوى الانساني او الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية والبيسئة، رقان في 1960/02/10.

مرّت سنوات الدراسة الابتدائية الأربع بالقصر، دون حدث بارز يذكر، باستثناء نزول معلم الفرنسية علينا، في سنتنا الرابعة والأخيرة بالقصر، كان تليّاً من أبناء الشمال، ولم يطق معيشتنا، فترك أمرنا لمعلمنا البشاري، في تعلُّم الحرف الرّومي، فقام بالمهمة على قدِّ الحال، وغير هذا فقد مرّت السنوات بالوتيرة نفسها، وفي القسم نفسه، ومع المعلم نفسه، فرسب الراسبون، وندم بعض الأولياء حقاً على فعلهم، ما جعل عددنا ينقص بكثير، حتى بلغنا عند نهاية الرابعة ابتدائي ce2، أربعة تلاميذ فقط، أنا و الداعلي، وعليليل ولد لعوج، وتلميذ آخر، كان خجولاً بيننا، لعلّه كان من القصر المجاور لنا، استنجد به مسؤول القصر لإكمال العشرة، كما أن قصرهم، لم يتشجعوا في دفع ابنائهم للمدرسة، ما جعله وحيداً، ولا يمكن فتح القسم به، فالتحق بنا.

في الخريف الموالي، انتقلنا نحن الأربعة، إلى مقرّ بلدية القصور الوسطانية، لمزاولة تعليمنا في الخامسة ابتدائي cm1، وقد كانت بها مدرسة ابتدائية واحدة، تستقبل التلاميذ في هذا المستوى، من كامل التراب الإقليمي للبلدية، كما أن الدولة نصبت لنا بها داخلية. كنا لا نذهب لقصورنا راجلين يوم الأحد، إلا مرة واحدة في الأسبوع.

كان فضاء البلدية بالنسبة لي جديداً، ومغايراً نسبياً لما كنت قد عرفته بالقصر، فبدأت اكتشف، ولأول مرّة البناء الطيني المحسّن بالإسمنت، وقد كانت داخليتنا كذلك، لكونها كانت مركزاً عسكرياً للفرنسين، ثم فازت بها الدولة، كغنيمة حرب، فجُعلت داخلية لنا، إلى جانب ماكنت أرصده من بنايات طينية حمراء شبه اسمنتية، متناثرة هنا وهناك، كدار البلدية، وعيادة صغيرة، كما أنّي لاحظت أمراً آخر شدّ انتباهي، وهو تلك المصابيح الكهربائية، التي تضيء لنا قاعة المراجعة ليلاً، وقد كانت محل استغراب ودهشة لي، قبل أن أراها، لكون مِيني ولد بَكَّةَ، والذي كان يسبقنا في التمدرس، قد تحدث لنا عنها كثيراً بالقصر، وقال لنا، أنها من الأشياء التي اخترعها الإنسان بعقله، وتمشي في الأسلاك بسرعة البرق، وكنا نُكذِّبُ ولا نُصَدِّقُ، لولا أن رأينا الأمر بأم أعيننا.

كان حظنا من تلك الأنوار الكهربائية، لا يتعدى أكثر من ساعتين يومياً، وهو ذلك الوقت المحدد للمراجعة بعيد المغرب، وقدره ساعة ونصفها، مع ما قد يُخلّى لنا من

نصفها الآخر لدخول مراقدنا، وأخذ أماكننا من أسِرتنا، نظراً لكونها كانت تتقد من محرك كهربائي قديم هو الآخر، حسبُك أن تضمَّه إلى تلك الغنيمة، التي غنمتها الدولة للمركز وما يحتويه، من فنون الحضارة، كالكراسي، وسيارة انجروفير صدئة، وأشياء أخرى خشبية وحديدية متراكمة على بعضها البعض، في زاوية من المركز، كنا نراها ولا نحققها.

لا صوت يعلو في صباح اليوم الأول من مبيتنا بالداخلية، إلا صوت تندر التلاميذ بما أصاب، ذلك التلميذ الخجول، الذي أكمل نصابنا من القصر المجاور، يوم دخولنا للمدرسة أوّل مرّة، والذي انتقل معنا لمقر البلدية، فقد كنت أنا والداعلي، قد أوصتنا جارة أمي وصديقتها المفضلة أمبيريكة، أن نأخذ أماكننا من الأسِرَّة السفلية، والابتعاد عن العلوية منها؛ لكثرة تقلبنا في النوم على الدنفاسة بسقيفة بيتنا.

كانت هذه النصيحة الثمينة، زاداً كبيراً لنا وعوناً، في تجنب السقوط من أعلى السرير العلوي، والذي فعل بصديقنا الخجول، ما يفعل الحجر، وهو يشجّ الرأس، فما وجدتني أصحو من نومي، من على سريري السفلي، وأفرك عينيَّ من تعسيلهما، بكثرة الروائح الكريهة، التي كانت تختلط برائحة العرق، والبول على الأسِرّة، فقد كان ذلك البول يرسم خرائط لقارات افتراضية.

قلتُ، ولمّا فركت عينيّ، تناهى إلى طبل أذني، قبل أن ترى عيني، جَلَبة وضجيج حاد، كان يتجمع عند سرير ذلك التلميذ الخجول، نهضت من سريري وتقاعست، فما وجدتني إلا بجانب التلاميذ، أتفرج في ذلك الصباح الباكر على المشهد، والدماء تنهمر من شجّ في رأسه، تكاد ترسم خرائط أخرى على الأرض المسمنتة، هي مشابهة لخرائط البول على تلك الأسِرّة. ففرّقنا المراقب التربوي، وطلب منّا الذهاب للاغتسال، ومن ثمة الذهاب للمطعم لشرب القهوة بالحليب، وقد كانت هذه المرّة، هي الأولى التي أشرب فيها القهوة بالحليب.

غسلنا وجوهنا وأطرافنا، ومسحناها بمناديلنا، التي كانت الدولة تصدقت بها علينا، مع الملابس، والأحذية، والجوارب، والمحافظ، وما فيها من أدوات، لتكون عوناً للمتعلم على التحصيل، وهي مكرمة تحفيزية، قد قامت بها البلدية، لكل التلاميذ الذين انتقلوا

من قصورهم الوسطانية، والتحقوا بالخامسة بمقر البلدية، وذلك بغرض التشجيع، وتكريس مبدأ مجانية التعليم.

في أحد أيام العطلة الربيعية التي أتينا فيها للقصر، من مقر داخليتنا الابتدائية، انتهزت الفرصة بمعية الداعلي، لنذهب إلى السباخ لاصطياد الطيور، فالفصل فصل ظهور الطيور، فاستلفنا فخاً مقوّساً للصيد من عند عليليل، مصنوعاً من الزيوان المقوس، كان يشكل ذلك التقويس من الزيوان، كـ فك الوجه، واحد علوي، والآخر سفلي، نسجت بينهما شبكة صغيرة بألياف النخل، لا تسمح للطائر بالمرور منها، فيُرفع الفك العلوي منه ليشد بخيط وشوكة في ثقب نواة التمر، ربطت فيها دودة حية متحركة، وما أن تبدأ الدودة في الحركة، حتى يأتي الطير.

الطيور كالبشر، فيهم الحذر، وفيهم المقدام الذي لا يحسب للعاقبة حساباً.

ومن الطيور الحذرة، التي كنا نتعب كثيراً في تصيّدها، ويكثر تردّدها كثيراً في المسك بالدودة قبل نزول الفك العلوي من الزيوان عليها وقبضها، طائر يسمّى أَزْراراق، ومنها ما كان يسهل علينا صيده، لكونه كان مقداماً، فما أن يرى بريق الدودة حتى ينزل عليها، دون تردّد، كطائر ولد كَلْمَة.

عدنا إلى ابتدائتنا وداخليتنا، غير أننا لم نكن على قدر كبير من العدد بالداخلية، بالرغم من أن جميع قصور البلدية، قد دفعت بأبنائها، حيث كنا نمثل مجتمعاً مصغّراً لمجتمعات قصور البلدية، ففينا الشريف، والمرابط، والحرّ المدعو بالعربي، والهجين كمن كان أبوه حراً وأمه أمَة، أو كمن كان أبوه تواتياً وأمه طارقية، أو كمن غلب عليه لون الزنوج كالداعلي.

كان المعلمون الذين يدرسوننا أكثرهم من بشار، وكانوا هم الآخرون، مختلفون في ألوانهم، ففيهم من لونه كحالنا، ولا سيما أولئك الذين يسكنون بواد الساورة، كأولاد أخضير، وكرزاز، وفيهم من سمرته مفتوحة كمعلمنا القديم الولد خالتي بقصرنا، وفيهم من كان لونه مائلاً للبياض، ولاسيما من كان يسكن منهم بالدَبْدابَة، أو القَنادِسَة، أو بني وَنيفْ، وكما كانوا مختلفين في ألوانهم، كانوا مختلفين في عطائهم، ففيهم الجاد المخلص، وفيهم الكسول المتراخي.

ولست أدري، هل كان من سوء طالعنا أم من حسنه، أن تعاور علينا منهم في تدريسنا، معلم بشاري، كان يقول لنا أنه من قبيلة دوي منيع، حتى لقبناه الدْويمْنيعي، فقد كان متمكناً في الحساب، ومتمكناً تمكناً أمكن في الإعراب؛ لكن مثلبته الوحيدة، أنه يأتينا متباطئاً في الدخول صباحاً، وقد أخبرنا مخبرنا مِيني، أن سبب تأخره في الاستيقاظ من النوم، هو كثرة سهره مع العود والكمان، فكثيراً ما كان يفتح لنا المسألة، ويعرب لنا الجملة من النص، حتى يغلبه رسول النوم على المكتب، وبالرغم من هذا التكاسل المشهود عليه، جراء إسرافه على نفسه في الغيوان؛ إلا أنه كان مخلصاً لنا في ذلك الوقت اليسير، المتبقي من سهره ونزواته، فقد كانت نتائجنا بقسمه مدهشة للمدير وأعوانه، ظناً منهم من أن مردوده البيداغوجي سوف يكون ضعيفاً؛ لكن نتائجنا أبطلت تلك الصورة النمطية عند المدير، وأعوانه، وباقي المعلمين، ما جعل المدير يكرّمه، في حفل الاختتام، الذي كان يقيمه نهاية كل عام، بمناسبة انتقال التلاميذ للمتوسطة الإعدادية، أو الالتحاق بمعهد التعليم الأصلي.

في أحد أماسي العطلة الأسبوعية التي كنا نعود فيها للقصر من داخليتنا، ويعلم الله، أنه كان يوم أحد، زارت بيتنا بَكَّةَ الطارقية، والدة مِيني، هي امرأة شمايْلِيَة[155]، بدينة، طويلة، عريضة، كان ولدها مِيني يقول لنا دائماً، أن أخواله الطوارق، لا يعطون للمرأة الرقيقة بالاً، و لا تعدل عندهم شيئاً، كما أنها تبتهج بطلاقها وتقيم لذلك عيداً. هي بيضاء بياضاً صافياً، عيناها كبيرتان وهاجتان، تلتحف قناعاً يسمى سَغْلَسْ[156]، وجلست جلسة مربّعة، أمي على يمينها، وعمّتي نفوسة على شمالها، وقامو تدنو قليلاً منهن، وقالت بَكَّةَ لأمي، بلهجة حسّانية مغسولة بالتواتية:

الشريفات و المرابطات، حق[157] مولانا أعطاهم في أرضكم.

ظلّت قامو على صمتها، تضع مقبض يدها على خدّها، ومرفقه على فخذها، دون أن تشارك بكلمة واحدة، مع علمها أنّها المستثناة، من حديث بَكَّةَ.

فأما أمي . والحق يذكر . فقد أصابها إحراج كبير، لِما قد يؤذي قامو وينغّصها في قلبها، مع علمها بمسالمتها، وأنّها لن تقلّب الأمر على أكثر من وجه، فقد تُرجع

---

[155]- لفظ شمايلي، في لهجة توات يطلق على الكهل.

[156]- قناع ملون، ترتديه نساء الطوارق، والشنقيطيات.

[157]- القاف تنطق هنا جيماً قاهرية.

الأمر كعادتها، أنها وجدت أمها حَدْهُمْ في بيت سيّدها، وأوكلت لها المهمة في آخر مرضها، وأوصتها بأسيادها خيراً.

أما عمّتي نفوسة، فقد سُرتْ بتمجيد بَكَّةَ للشريفات وللمرابطات و للجيدات بالقصر، وقد كانت أمي حينها تتمنى في قلبها، أن لا تدغدغ عمّتي السكين في الجرح، فيصيب قامو أكثر ما أصابها من قول بَكَّةَ الأول، فتقبّل الله أمنية والدتي، وأذهب الشيطان عنها قول معتادها من الكلام.

وبينما الحال بينهن، وأنا والداعلي متلهيان بلعبنا الطفولي، التفتت بَكَّةَ في هذه المرّة لعمّتي، وقالت مستدركة، وقد يكون ظهر لها شيء، من شعور قامو من قولها:

حال قامو عندكم بتوات...

أحسن حالاً من مثيلاتها عندنا بالأزواد[158]...

خلال دراستنا في هذا العام، يكون الداعلي قد رسب في امتحان الفصل الأول من السادسة المسمّاة بالسيزيام[159]، بسبب تأخره في التحاقه بالدراسة، حتى أواخر نوفمبر من هذا العام، لكون والدي ووالده، قد اتفقا على التمسّك به، حتى الإفراغ من أعمال الحرث والبذر، ليرخص له بإتمام دراسة هذا العام بقسم الرخصة.

أما أنا فقد التحقت بالدراسة منذ بدايتها، ولم يكن للداعلي و والده أمبارك بدٌ من قبول الأمر على مرارته، فهو يرى نفسه محظوظاً لكون سيّده قَبِل بتمدرسه، إذا ما قارن نفسه بحالة أبناء الخمّاسين الآخرين من أهل القصر، الذين كان أسيادهم يستغلونهم في الحرث والفقاقير، ولا يدفعون بهم للتعليم، كحال الصْويلَحْ ولد البرّاح أَجْميعَة، خمّاس أعمامي الكبار، وغيره من أبناء الخمّاسين. إنما هي سحابة صيف، وقد واعده والدي وعد الحرّ، بأن يسمح له بمزاولة الدراسة منذ بدايتها في العام القادم.

صبر الداعلي لقضاء الله وقدره، وقد أبلى بلاء حسناً في أعمال الحرث والبذر مع والده بسباخنا، وبذل مجهوداً فائقاً في أعمال الفقاقير، ما جعل مردودنا الفلاحي لهذا العام يكون وفيراً، فرضي عنه والدي.

---

[158]- صحراء مالي.

[159]- السنة السادسة بالفرنسية.

خلال هذا العام دائماً، اجتزت امتحان السادسة بنجاح خلال نهاية العام، و ما جاء في نهاية كشف نقاطي:

ينتقل إلى القسم الأعلى، لمزاولة التعليم العام بالمتوسطة المختلطة بأدرار.

أما الداعلي المسكين، فقد أكمل دراسته خلال هذا العام، بقسم آخر، كان يسمّى، cours fin des etudes[160]، وهو قسم به رخصة، للتلاميذ الذين كان سنّهم لا يسمح لهم بإعادة السنة السادسة، لينتقل بعدها للمعهد الأصلي، ما جعل تعليمنا متوافقاً ومتلازماً نوعاً ما، فكل منا سوف يدرس الإعدادي، لكن الاختلاف بيننا، أنه سوف يدرس التعليم الأصلي، وأنا أدرس التعليم العام بالمتوسطة.

[160]- قسم نهاية الدراسة.

الزقاق الثامن من قصبة القصر الطيني

ها هي أمارات الخريف قد هلّت، فمتى رأيتَ الأطفال المتتلمذين في نهاية المرحلة الابتدائية، أو المتمدرسين بالإعدادية، قد أخذوا في الإسراع بنقل الغبار على حميرهم إلى السباخ، فاعلم يقيناً بأن موعد الدراسة قد قرُب، أو وشك على الاقتراب.

كان الداعلي وبمعاونة قليلة مني، لإشفاقي وخوفي عليه، أن يتكرر له ما وقع له في السنة الماضية، وإن كنتُ أدرك مدى العهد الذي قطعه والدي مع نفسه، في تمكين الداعلي خلال هذا العام من التحاقه بالدراسة منذ بداية العام الدراسي؛ لكن أحوال أهل القصور مع بساتينهم، وحرثهم، وفقاقيرهم لا تُؤتمن.

ولما كان الأمر في بداية اللّيلة الأخيرة، التي تسبق ذهابنا لمدينة أدرار، جلست رفقة صديقي الداعلي في رحبة الجلوس، حيث كانت أمه قامو، تقوم ساعتها بطقوس طهي العشاء لنا، على أحجار ثالثة الأثافي بالمنيصب، هو عشاء بسيط، أظنه تقديراً[161] في هذه اللّيلة، حيث تحلّقنا مع أمي، وعمّتي نفوسة، حيث كانت ترسيمة ظل جلوسنا، ترتسم على حائط الرحبة، نظراً لانعكاس ضوء النار المشتعل أمامنا، مع ما يمكن أن يُسمع من صوت تكسير أقرط[162] الجريد من قامو(قَشْ)، أو معمعة الشياه برحبتنا(ما).

اختليت قليلاً رفقة الداعلي عن هذا المجلس، الى زاوية قصيّة من هذه الرّحبة المعرّاة، وقلت للداعلي:

هل تدري من هو أكبر رجل إنساني في خط جريدنا يا الداعلي؟

فكّر الداعلي كثيراً، وقدّر قليلاً، وقال لي بعد برهة:

لعلّه ذلك الفرنسي، الذي ذكره معلّمنا لوالدك، من أنه أشفق على الساكنة عندنا، من أمر تلك القنبلة اللّعينة، التي ولدتَ في عامها.

قهقهتُ قهقهة سرقتُ دويها، بوضع يدي على فمي، وقلت للداعلي:

إنه والدي، أجل يا الداعلي، إنه والدي...

بدا . وهذا هو الظاهر . وكأن الداعلي، لا يصدق قولي، فقطّب عينيه كالعادة، وقال لي:

---

[161]- أكلة شعبية، تكون بطهي العجين بالقدر مع المرق.

[162]- أقرط: كلمة زناتية، تعني النهاية الغليظة والمشوّكة ، لجريدة النخلة.

كيف ذلك؟

فقلت للداعلي وكلي فخر واعتزاز بوالدي:

كل أهل قصرنا، والقصور المجاورة له من خط جريد توات، لم يشفق أحد على أبناء الخمّاسين، ويزهد في سباخه، وفقاقيره، ويرسل ابن خمّاسه للدراسة، إلا أبي، ألا يستحق أن يكون إنسانياً.

التفت الداعلي بيده إلى شعره الأجعد، ودعكه دعكاً خفيفاً، وقال لي:

صدقت والله.

في صباح اليوم الموالي من تلك اللّيلة، جهزنا أمتعتنا القليلة، من السّفوف أولاً، وما يمكن أن يكون عندنا من ملابس بالية في معظمها، وقليلاً من الزاد، ككسرة قمحية، ودن صغير مغلّف للماء، وودّعنا أمي، وعمّتي نفوسة، وعمّي حَمُّو وأمبارك وقامو، ولم يكن والدي قد أتى بعد من تجارته ببلاد السودان، فقصدنا كعادتنا الطريق نحو مقر البلدية راجلين كالعادة دائماً، حيث أُبلغنا قبل يومين، من مسؤول جماعة القصر الحاج عبد السلام، أن البلدية سوف تنقلنا بمعية أبناء القصور الأخرى باتجاه مدينة أدرار ظهراً.

كان الوقت ضحىً، عندما غادرنا القصر باتجاه الشمال، فمررنا بطريق معبّد بحوافر الحمير، ونعال البعير، كانت تسمّى هذه الطريق طريق لَعْرَبْ، وهي تمر بكل القصور الممتدة بين قصرنا الوسطاني وأدرار، والمشكِّلة لخط قصور جريد توات، فمررنا بقصر قديم، كان موطناً لليهود، فنزلنا ودياناً، وصعدنا وهاداً، وسلكنا حمادة رق، حتى شارفنا قصراً ثانياً، لا يبعد عنه كثيراً، هو الآخر قد عرف استيطان أقدم جالية يهودية بمنطقتنا، لنبلغ أخيراً مقر بلديتنا، وقد كنا نعرف هذا الطريق، كما نعرف الطويل والقصير من أصابعنا، لكثرة مشيتنا فيه أيام دراستنا بالابتدائية.

لم يكن وصولنا إلى مقر ابتدائيتنا عادياً، كمرورنا بالفضاءات الأخرى التي مررنا بها خلف ظهورنا، من وهاد، و وديان، وحمادات رق، فقد شدّني الحنين إلى أيامها، بحلاوتها ومرارتها، وإلى معلميها البشاريين، وكذا يوميات داخليتها، بما يمكن أن يكون محفوراً في ذاكرتي من يوميات مفارقتها، وإن كنتُ أنسى كل الذي أنساه من خطبها وجللها، دون أن أنسى ذلك المشهد الذي صبّحت عليه في أوّل يوم من أيام

داخليتها، من أمر سقوط ذلك التلميذ الخجول من أعلى السرير، وسباحته في تلك الدماء.

وصلنا إلى مقر البلدية، بعد سير ما يقارب الساعتين راجلين، فاستقبلنا مدير المدرسة، وأطعمنا غذاء بارداً غير ساخنٍ، هو على كل حال، نصف رغيف خبز، وعلبة سردين طماطم، وثلاثة أصابع من الشكولاتة، التهمناها بسرعة البرق لشدة الجوع، وحنيننا إلى أرغفة الخبز، والسردين والشكولاتة بعد عطلة صيفية كاملة، وأكملنا ما تبقى من جوعنا بسفّة من التّمر المكسّر الذي كان معنا كمؤونة.

كان مجيء تلاميذ القصور متخالفاً في وقته، فبعضهم سبقنا، وبعضهم تأخر عنّا قليلاً، انتظرنا حتى كَمُلَ نصابنا، كنّا ساعتها عند الظهيرة، في حدود العشرين من جميع قصور البلدية، فتكدّسنا في سيارة البلدية الوحيدة، من نوع 403 بيجو **(باشي)** نفعية، كتكدّس التّمر المعجون على بعضه البعض.

كانت هذه المرّة هي المرّة الأولى التي أركب فيها ذوات الأربع، التي تمشي بالمحرك، سيارة داكنة تظهر زرقتها الداكنة، خلف غطاء سميك من الغبار الطيني المترسّب.

طوينا مقر البلدية خلف ظهرنا لجهة الجنوب، متجهين نحو الشمال، عبر طريق طيني مغبر، فقطعنا قصور خط جريد توات، حتى وصلنا تمنطيط، وما أدراك ما تمنطيط، حيث التاريخ، واليهود، والمغيلي، و آل البكري.

فظهرت لنا بعدها سبخة مُفَضْرَقَة[163] منبسطة، تظهر في نهايتها واحات متناثرة لقصور تيمي، كبور زاوية سيد البكري، وبور كقصبة أولاد بَنْ أبَّا[164]، ونخيل المَنْصورية، وأطلال قصر أَغْرامْ أَقْبورْ، بما يشكّل حزاماً أخضراً من النخيل، يبدأ شرقاً من بني تَامِر، لينتهي غرباً عند حدود قصري بوزان وكوسام.

كانت الطريق الطينية البعيدة، الممتدة بين قصرنا الوسطاني بأواسط توات الحنّة، ومدينة أدرار طويلة نوعاً ما، لنصل بعدها مدينة أدرار بعد عناء ومشقة كبيرة، وقد كان الوقت ساعتها زوالاً، وما إن بلغنا وسط المدينة، حتى استقبلتنا أدرار بأبوابها الأربعة المقوّسة، وذاك عهدها، اِثنان من جهة الشرق، هما باب رَقّان لجهة الجنوب،

---

[163]- أفضريق لفظ بربري، معناه في لهجة توات، تلك النتوءات الحادة من أرض السبخة.

[164]- قصر أولاد بوحفص.

وهو الباب ذاته الذي دخلنا منه، وباب تيميمون لجهة الشمال، يركن بينهما سوق دينار، واِثنان يتسمران في جهتها الغربية، باب بوبرنوس لجهة الجنوب، وباب بشار لجهة الشمال، حُصرت بين تلك الأبواب الأربعة المقوّسة، ساحة ماسينيسا الفسيحة الخضراء.

كانت أقرب إلى التربيع منها للاستطالة، يخلد في شرقها الشمالي فندق جميلة الأحمر الطيني الجميل، تدور بها أقواس طينية من جهاتها الثّلاث، خلا الجهة الجنوبية، التي بنيت على طولها ثكنة عسكرية، أو لعلّها مركز فرنسي قديم، له سور عالٍ وأبراج، وقد قال لي والدي ذات مرّت عندما تصادفت معه فيها، أن نمط عمارتها يشبه كثيراً عمارة تِمْبَكْتو وغَاوْ من بلاد السودان المالية والنجيرية.

كان المنظر رائعاً لاكتشاف الدهشة الأولى لمدينة أدرار، تفرّقت مع الداعلي، أنا ذهبت للمتوسطة المختلطة، مع ثلاثة من مرافقينا من أهل قصورنا، وذهب الداعلي إلى جنان كَابُويَا[165]، حيث سيدرس هناك بالمعهد الأصلي، رفقة عليل، وأربعة عشر من رفقائنا، كان من بينهم ذلك التلميذ الخجول.

كانت المتوسطة المختلطة بالنسبة لنا أكثر تحرراً، نظراً لمناهجها المنفتحة، وكذا أساتذتها وتلاميذها، فكانت مناهجنا تتقاطع بشكل كبير مع مناهج الداعلي، في معارف الرياضيات، والجغرافيا والتاريخ، والعربية، وإن كان من خلاف بيننا وبين الداعلي ورفقته، فهو في تلك المعارف الشرعية التي كانوا يدرسونها كالفقه، وأصوله، والتجويد، وقد كانوا يضاهوننا بالإنجليزية، وكنا نعلو عليهم بالفرنسية، كما أن أساتذتنا كانوا أكثر تحرراً من أساتذتهم، فقد كان أغلب أساتذتهم من المتطربشين الأزهرين، أما أساتذتنا فكان أغلبهم من المصريين كذلك، لكن ليسوا بالمعممين والمطربشين، بل كان فيهم المسيحي القبطي، كما كان منهم بعض الفرنسيين.

المهم في هذه المرحلة تغيّر مصطلح المعلم عندنا، وحلّ محله مصطلح الأستاذ، كما كان الأساتذة في المتوسطة عندنا وعند الداعلي بالمعهد، يختلفون عن معلمي الابتدائية، بما يعرف بالتدريس عن طريق الاختصاص، ففيهم من اختصّ

---

[165]- كابويا: اسم عائلة أدرارية ثرية، وظّفت كثيراً من ثرائها، في نهضة الحركة الثقافية بأدرار، خلال نهاية الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي.

بالرياضيات، وهو مصطلح جديد حلّ محل ما تعارفنا عليه بالحساب، وفيهم من تخصص في العربية ونحوها وأدبها، ومنهم من تفرّد بتدريس الجغرافية والتاريخ، ومنهم من لا يفقه سوى علم الطبيعة والتشريح، وقُل ذلك عن الفرنسية، وشقيقتها من اللاتينية الإنجليزية.

كان أستاذ التاريخ والجغرافية، المدعو جاسم العراقي، رجلاً كهلاً، ضعيف البنية، متوسط القامة، قمحي اللّون، صاحب دعابة ونكتة، والذي قال لنا، أنه نُفيّ من لدن سلطة بلاده، لكونه كان شيوعياً، ولم يتقبل مبادئ حزب البعث، ما جعل السلطات العراقية تطارده، ويفر بجسده، ويستقر بأدرار، كمستقر للمنفى الاختياري. فقد كان موسوعة متنقلة، ومدونة تاريخية للقديم، والوسيط، والحديث، ما جعل درس التاريخ والجغرافية، يكون عندي، من أكثر الدروس المحببة والممتعة على الإطلاق...، فكم كان يحدثنا عن تلك القنبلة الذرية الفتّاكة، التي أصابت الهيروشيما باليابان، ويقارنها بتلك التي جرت بمملكة زيواننا في حموديا رقّان، وما ذكره لنا، أنه بالرغم من اختلاف الزمان والمكان، إلا أن الأهداف والأضرار، تكاد تكون واحدة؛ بل وأكثر عندنا.

صادف رجوعنا للقصر ذات صيف، أن وجدنا القصر وقد وقعت به تحولات غير مسبوقة، حيث انتصبت بأزقته الضيقة الأعمدة الكهربائية، الخشبية والحديدية، ومُدت بينها الأسلاك، ووضع عند مدخل كل بيت عداد له باب.

لم يكن الأمر غريباً عنّي، ولا عن الداعلي، ولا عن عليليل، ولا مِيني، لكوننا قد شاهدنا ذلك سلفاً، بابتدائيتنا، وبمدينة أدرار، وكنا كثيراً ما نتحدث عن ذلك لأمي وعمّتي وقامو وأمبارك، ولا يصدقون، من أن الكهرباء تسري في الأسلاك بسرعة البرق من القاطعة نحو المصباح. لم يعد سكان القصر إذا في حاجة للإنارة بقناديلهم، فقد أصبح لقصرنا حظّه من الحضارة، غير أن القليل من أهل قصرنا، ظلوا متمسكين بقناديلهم، رافضين الوافد الجديد، ومنهم أعمامي الكبار، الحاج قدور والحاج عبد الله.

وما إن تمّ توصيل الكهرباء لأغلبية السكان عندنا بالقصر، حتى وفد وهلّ عليهم وافد جديد، وقد كان هذا الوافد الجديد، حقاً مدعاة للاحتفاء به أكثر من دخول الكهرباء،

وتمثّل ذلك في تجربة زراعة الطماطم الباكورية، فقد استعانت البلدية وقتها بمهندس فلسطيني، فوقع الاختيار على قصور قليلة، لإجراء التجربة، فأقامت البلدية بمعية المهندس الفلاحي الفلسطيني مشتلة للطماطم، ووزع على قدر معلوم من الفلاحين، بذور لمشاتل الطماطم، وأرشدهم إلى كيفية غرسها، كما وفّرت لهم البلدية الأسمدة الاصطناعية، وضمنت لهم بيع منتوجهم.

كانت النتائج مبهرة وجد مشجعة للفلاحين في هذه البداية، ما جعل الكثرة منهم، تتخلى عن جزء كبير من قَمَامِين[166] زراعة القمح، والتي كانت هي المورد الأساسي والوحيد لمعاش سكان القصر.

بدأ دخل الطماطم يدر على سكان القصر أموالاً طائلة، ما جعل محصولهم من القمح يتناقص بشكل واضح، فأعيتهم الحيلة، ما دعاهم لاستيراد السميد المستورد من السَّمْبَاك. بينما ظل أعمامي الكبار، ومن شاكل شاكلتهم من المتعنتين، متمسكين بقناديلهم، وحرث قمحهم، وشرب ماء القِرب، بعدما كان الناس عندنا، قد آلفوا ماء الثلاجة البارد خلال هذا الصيف.

في أواخر هذه الفترة التي كنا ندرس بها بأدرار، كانت أختي مريْمو، قد طلّقت ملامح الطفولة، وبدأت تلبس ملامح الأنوثة حقاً، ولم تعد تقوى على اللّعب معنا برفقة الداعلي، كانا نهداها قد بدآ فعلاً في خلق عقدتين بارزتين من صدرها خلف عباءتها، كما كانت تلك الملاحة الشريفية لأمي، المختلطة بالدعة المرابطية لأبي، تظهر كثيراً من مفاتنها، وبالرغم من هذا البهاء والنضارة، التي كانت تتمتع به، إلا أنها لم تكن تتمتع بذلك القدر، الذي يجب أن تستحقه، على وجهها الملائكي المَسْرَار.

فعمّتي نفوسة، تدرك تمام الإدراك، مدى بهجتها وحسن طلعتها، إلا أنها لم تكن تنظر إليها، إلا على أنها طوبة، والطوبة في فصل خطابها تذوب وتكسر وكفى. لم يكن بخافٍ على أختي مريْمو، رغم جمالها، بأن مستقبلها هو البوار، لكون شباب القصر، من بني عمومتنا، أو من غيرهم، ينظرون للمرأة من جهة الميراث، لا من باب ما يقصد ويطلب بإلحاح من مرغوب الرجال في النساء.

---

[166]- القمون في لهجة توات، يعني تلك المساحة المحروثة والمسقية بماء الحوض، عبر طريق يسمّى عندهم، أبادو.

كانت أمي منذ صغرها، تقول لها دائماً بحسرة وألم:

(هذا ظهرك[167] يا مريْمو)

[167]- حظك.

الزقاق التاسع من قصبة القصر الطيني

شكّل خريف أحد السنوات بقصرنا وناحيتنا حدثاً بارزاً، علاَ صخبه ونقيقه، حتى اخترق الآفاق، وأصبح حديث العام والخاص، والمتمثل في تطبيق قانون الثورة الزراعية، يمكن وصف هذا الحدث على وجه التقريب من حيث الأهمية والضجيج الذي خلّفه، إلى حدث ذلك العام من ميلادي، مع ما قد خلّفه مجيء الجراد، وما أحدثته تلك القنبلة الذرية يومئذ. ولعلّ ربما هذا الحدث يمكن تسويغه وتجويزه، بأنه كان الأكبر والأبرز، لكونه قد مسّ أهالي قصورنا، في أعز ما يملكون، ويتفاخرون بميراثه وتركته، من السباخ، والفقاقير، وهو الأمر ذاته الذي دفعهم، لأن يحبّسوا أملاكهم وأرزاقهم، على الذكور دون الإناث.

وقد كان قرار هذا الحدث، صدر مرسومه في 08/11/1972، والقاضي بتحديد ملكية الأراضي، وتأميم الباقي منها، وتوزيعه على الفلاحين، وكذا إحداث الصندوق الوطني للثورة الزراعية، تحت شعار:

(الأرض لمن يخدمها).

ومع أن بلديتنا يومها، كانت تابعة إقليمياً لولاية القصور الفوقانية والوسطانية والتحتانية، فقد أوفدت الولاية لجنة ولائية، تتكون من ممثل الإدارة، وممثل الجيش، وممثل الأمن، وممثل مصالح الفلاحة والرّي، قصد تشكيل لجان بلدية أولية، يُعهد إليها، القيام بإحصاء الأملاك والأرزاق بقصور البلدية، ولكونهم مدركين لغواية ما تفعله السباخ وقواريط الفقاقير بأصحاب زيواننا، فإن اللّجنة عمدت إلى حيلة ماكرة بهم، فأشاعت اللّجنة بين أهالي القصور، وسار الخبر بين القصور، كسرعة النار في الهشيم، من أن الذي لا يصرّح بأملاكه وأرزاقه، فلن يكون له حظ في توثيقه وتمليكه.

وبهذا فقد تدافع الناس عندنا بشكل لا يصدّق، بغرض التصريح الحقيقي والبريء، بكل ممتلكاتهم، ما ظهر منها وما بطن، حتى تلك التي تُدعى أرض البور، لم يترددوا في التصريح بها هي الأخرى، بمن فيهم نحن، وكأني بهم فعلوا ذلك، لتقوية توثيق أملاكهم وتحصينها، وبالموازاة مع ذلك، قامت اللّجنة ذاتها بإحصاء الأفراد، الذين لا يملكون نخلة، ولا سبخة، ولا قيراط ماء، وقد كان عددهم هم الآخرون غفيراً، وكلهم من الخمّاسين والخرّاصين السود، كأمبارك ولد بوجمعة وأجميعة وغيرهم.

وما إن أتمت اللّجنة الولائية عملها وتقريرها، ورفعته للولاية، فقرأه الخبراء، فأصابتهم دهشة كبيرة، لكثرة الأملاك عند الفرد الواحد من أهل قصورنا، مع ما يمكن أن يكون الخبراء قد رصدوه في مقابل ذلك من أمر ذلك التقرير، من وفرة الأفراد الخمّاسين والخرّاصين الذين لا يملكون، وقد كانت الحجة دامغة علينا، في أن تأتي برقية مستعجلة للفسيان[168]، تأمره بإيفاد لجنة، تقوم بتشكيل لجان بلدية، متكونة من أعضاء المجلس البلدي، تكون مهمتها، الاجتماع بالملاكين في قصورهم، وحثهم على تطبيق المرسوم.

وكان الابتداء أولاً في تطبيق هذا القرار، بأعضاء المجلس البلدي، الذين ألزمهم القرار، التبرع بجزء من أملاكهم لفائدة الصندوق، وقد كان الأمر محرجاً حقاً لأعضاء المجلس، فأسعفتهم البديهة، ولم تتأخر عنهم الحيلة، في التبرع بأرض البور، التي لا تنبت زرعاً، ولا تحلب ضرعاً، ومنهم من تبرع لأحد أقاربه، كأبنائه، أو إخوانه، أو زوجته، وقد سمعت قائلاً منهم يقول ويردد المثل الشعبي التواتي: **(الماء إيْلاَ نَكْسَرْ في الجنان ما ضاعْ)**[169].

كما ضحّت قبيلتنا بوالدي، الذي كان غائباً في تجارته يومها، وقُهر عمّي حَمُّو من لدن أعمامي الكبار، فأعطت اللجنة سبختنا الكبيرة لـ أمبارك ولد بوجمعة، الذي كان بها خمّاساً، وذلك كله بهندسة متقنة من عمّي الكبير الحاج قدور، غفر الله لنا وله.

نزل خبر تملّك سبختنا الكبيرة لخمّاسها أمبارك على عمّتي نفوسة، وعلى القصر وأهله كالصاعقة، فأضحى خبر الثورة الزراعية، هو السائد دون غيره من يوميات قصرنا الزيواني، وغيره من قصور ناحية توات، فهو حديث الشيوخ والأعيان، على قنطرة القصبة، كما هو حديث النّسوة، وهن ينسجن التَّدارات من الزيوان بسعف النخيل، بل لم يسلم منه حتى من كان في عمرنا.

كانت عمّتي من أكثر المتضررين نفسياً بأمر هذه الثورة، وقد دفعت الثمن غالياً، فتلك السباخ التي كانت تحلم بميراثي لها، ولا سيما السبخة الكبيرة، وهي أعز سباخنا وأوفرها منتوجاً، أضحت لخمّاسنا، ما جعل الجنون يأتيها باكراً دون مُقبِّلات،

---

[168]- في لهجة توات، يطلقون الفسيان، على ما يقابل رئيس الدائرة.

[169]- معناه: إذا ساح الماء في البستان، بقصد أو بغير قصد، ففي كل الأحوال، هو مفيد، وغير ضائع.

فاكتحلت بَشْنيَة لونها، وكثر فيها النوح والبكاء، كما أنها أصبحت تكره كل من كان لونه كأمبارك.

بلغ الخبر والدي، مع أول شاحنة تجارية عتيقة تصل غَاوْ، حيث بدأ التجار خلال هذه المدة، يتخلون عن تجارة القوافل بالجمال، فنزل عليه الخبر كالرعد، فكلّف أحد أصدقائه على سلعته المتكونة من التبغ البلدي، والتّمر، ورجع متعجلاً مع الشاحنة نفسها التي نقلت له الخبر، بعد إفراغها، وملئها بالكباش والفحم.

أما عمّي حَمُّو، فقد استعجل طرد أمبارك وزوجته قامو وابنهما الداعلي، من بيتنا بدرب الشْهود، قبل مجيء والدي، كإجراء أولي، أظهر به ردّة فعله وغضبه عمّا حدث. فرقّ لحالهم مسؤول جماعة القصر الحاج عبد السلام، وأعطاهم بيتاً من مساكنه الكثيرة الفارغة.

كما أن علاقتي بالداعلي، بدأت تشهد توتراً غير مسبوق بيننا، فبعد أن كان صديقاً ملازماً لي، في حلي وترحالي مذْ ولدتُ، أضحى عدوّاً لدوداً، لكون والده قد غصب **سبختنا لكبيرة...**، والتي كانت عمّتي المجنونة، ترى فيّ الأمل الوحيد، بعد تلك السنوات السبع الطويلة والرتيبة، التي انتظرتها مع والدي و والدتي، وعمّي حَمُّو، لأن أكون وارثاً لها، أضحت مغصوبة منا، ليس من أعمامي الكبار فحسب؛ وإنما من طرف خمّاسنا. فبلغ بي الأمر منه، حتى وصل حد الحقد وتمني الموت له ولوالده و والدته.

أما أمي وبالرغم من عشرتها الطيبة مع قامو، وحنانها الدائم عليها، إلا أنها وبهذا الصنيع، قد أظهرت امتعاضاً ليس خفياً اتجاه قامو، جعلتها تردم تلك السنوات الحلوة بينهما في قبر خارج القصر.

مع رجوع والدي للقصر، يكون أمبارك رفقة عائلته، قد استقلّ عنا استقلالاً تاماً، ما دعاه لأن يطلّق بقية السباخ الأخرى كالسبخة الفوقانية، والتحتانية، والسبيخة، طلاقاً بائناً بينونة كبرى، ليتكفل بها عمّي حَمُّو بنفسه.

كنا الوحيدين بالقصر من قبيلتنا، الذين طُبق عليهم القرار، لغياب والدي، وعجز عمّي حَمُّو، في التصدي لمؤامرات عمّي الكبير، الذي انتهز الفرصة، بعد أن قطعتُ عليه الطريق في ميراث تلك السبخة الذهبية الكبيرة، بالرغم من كرهه لتملك

الخمّاسين، إلا أن سهم قبيلتنا في دفع الثمن بواحد من مالكيها، جعلته يدبر الأمر بهذه الطريقة مرغماً.

تدهورت الحالة النفسية والصحية لعمّتي، ما جعل والدي يفكّر في عرض قضيتها على الطالب أيْقشَ، وقد كان فعله في طرد الجن بالقصر مجرّباً، فحملها عمّي حَمُّو إليه، ووصف لها حجاباً أحمراً، فيه جدول مزج ترابي تستعمله بخوراً، وبعد أسبوع من استعمال وصفة أيْقشَ، بدأت تسترد عقلها شيئاً فشيئاً، غير أن ترسبات حرقتها على غصب **سبختنا لكبيرة**، واغتيال حلمها بميراثي لها، جعل الوسواس باقياً معها، حتى بعد شفائها.

كان انشغال اللّندشويني بحال سباخه وأهواله، قد أنساه الوقوف مع عمّي حَمُّو ضد تخطيطات عمّي الأكبر، لكونه صديقاً وفيّاً لوالدي إبان فترة غيابه، ما خلق نوعاً من التوتر بينه وبين والدي، فقال له والدي متحسراً:

كنتُ أظنك وفياً لي، غير أن الذي وقع يقطع الشك باليقين.

فردّ عليه اللّندشوني بكل استعجال:

لو كنتَ موجوداً، لرأيتَ الأمر كيف كان...

كان الأمر كالقيامة، يفرّ المرء يومها من أخيه وصاحبه...

وكدت أكون مثلك ككبش فداء من قبيلتي، لولا....

كانت أخبار قصرنا تتداول عند القصور المجاورة، كما كانت أخبار القصور المجاورة لنا تتقاطر علينا، وتتناقلها القوافل، حتى غدا الخبر، يصنع الحدث، في الحل والترحال.

تأخر ميعاد دخولنا ورجوعنا للدراسة خلال هذا الخريف، لأكثر من ثلاثة أسابيع، لكون السيارة الوحيدة، التي تمتلكها البلدية، من نوع بيجو 403، كانت مكلّفة بتنقلات اللّجنة البلدية، الساهرة على تطبيق قانون الثورة الزراعية، ما جعل دخولنا والتحاقنا بالدراسة هذا الخريف يكون متأخراً، فقد لاحظنا خلال صعودنا من على سطحها، أن رئيس البلدية، قد مكّن سائقها سيد البوهالي، ظرفين مختومين ومغلقين، بأن يمكّن ظرفاً لمدير المتوسطة المختلطة التي كنت أدرس بها، أما الظرف الآخر لمدير المعهد.

عرفنا بعد وصولنا، من أنهما تبرير لتأخرنا وغيابنا. فبينما كانت وجوهنا مغبرّة بغبار الطريق الطيني الممتد بين قصورنا وأدرار، استقبلنا مدير المتوسطة، بوجه عبوسٍ، كانت علامات الغضب بادية عليه، دون رسول، فسلّمه سيد البوهالي سائق سيارة البلدية ذلك الظرف، ولشدة غضبه وتوتره، مكّنه للحارس العام للداخلية لأن يقرأه عليه، وعلى مسمع منا، ومما سمعته وحفظته على ظهر قلب:

من السيد رئيس بلدية القصور الوسطانية

إلى السيد مدير المتوسطة المختلطة بأدرار

بعد التحية والإكرام، والسلام النضالي العميق...، إنه من موجبات إبلاغكم، اعلمكم سيدي، بأن تلاميذ قصور بلديتنا، قد تأخروا بسبب انشغال السيارة الوحيدة للبلدية، ما جعل اللّجنة الولائية، ومتابعي اللائحة السياسية، القادمين من ولاية الساورة، يشددون في متابعة العملية، الأمر الذي جعل سيارتنا الوحيدة، تكون كثيرة الاستعمال، مشغولة البال مع سائقها البوهالي، لتأدية الغرض المذكور آنفاً، وعليه ألتمس منكم العذر، لتأخر أبناء رعيتنا من البلدية، وفقكم الله، وسدد خطاكم، المجد والخلود لشهدائنا الأبرار.

بلدية القصور الوسطانية يوم: 08/10/1974

رئيس المجلس الشعبي البلدي

مع تطبيق قرار سلخ ملكيتنا من السبخة لكبيرة، وتملكها لوالد الداعلي، أصبح التيار لا يمر بيني وبين هذا الأخير، بالرغم من أن الأمر لا ناقة له فيه ولا جمل؛ لكنها طبيعة الإنسان كانت تدفعني لأن أقف منه موقفاً، في أمر ورثته عن أجدادي، فأخذ كل منا سبيله وطريقه، بعد أن كنّا كالتؤامين، لولا أن لونه يذهب شك كلّ متوهم لذلك.

كان هذا الأمر باعثاً لي، لأن أبدأ في اكتشاف الجواب لذلك السؤال البريء، الذي طرحته مرتين، الثانية كانت فيه أنضج من الأولى، وإن كنت في كليهما لم أقف على حل يذكر؛ بل لم أفكر فيه بالمرّة، سوى أن الأمر دعاني للسؤال وانتهى.

نعم يا سادتي الأمر يتعلّق بلوني ولون الداعلي، لوني متملك تملكاً فاحشاً، ولون الداعلي خمّاس، ولا يملك قطميراً، ليس هذا فحسب، لوني متبوع، ولون الداعلي تابع...

خلخلت الثورة الزراعية أعمدة أبراج قصبة القصر، وقلبت عاليه سافله، وبدأت التحولات الاجتماعية بالقصر، تحدث بشكل محتشم، فبدأ أمبارك يمنّي نفسه بالصف الثاني بالمسجد، بعد أن كان لا يطمع حتى بالصف الرابع منه، كما أن زوجته قامو، بدأت هي الأخرى ترتدي الإيزار، بعد أن كانت في أحسن الأحوال، تستتر فوق عباءتها بـ التَّشْضَايَتْ[170]، ولم تعد تقبل مصطلح دَادَايَة، ولا أن تقول لالايْتي، أو سيدي.

تباً لك والدي على إنسانيتك...، كنتُ مخطئاً لتفاخري على ذلك...

[170]- إزار صغير جداً، ليست له أهداب أو أطراف، كانت الجيدات من القوم لا يلبسنه.

الزقاق العاشر من قصبة القصر الطيني

في الصيف الموالي، من ذلك الخريف البائس...، فبينما أنا مع عليليل، وعمّي حَمُّو، بتلك الساحة أمام القصبة، في سمرية صيفية ليلية مقمرة، بين المغرب والعشاء، إذ مرّ علينا رجلٌ كهلٌ، طويلٌ نوعاً ما، لا نعرفه، يحمل متاعاً على كتفه الأيسر، ظهر لنا من لونه أنّ لونه كلوننا، بالرغم ما يمكن أن يطمسه ضوء القمر، ومعه امرأة تصغره بسنين قليلة، هي أقرب للقصر منها للطول، أجمع الحضور على أن لونها ليس كلوننا، بل هو أبيض مفتوح عليه، تحمل حقيبة صغيرة بيدها، لكن لباسها ومشيتها، يختلف عن لباس ومشية نساء قصرنا، تمشي خلفهما فتاة، مربوعة القد، تكون أقلّ من سني بعام، لم يستطع القمر وضوؤه أن يحجبا جمالها، اختلفنا في أمر لون الأخيرة، اختلافاً بيّناً، لكونه كان خليطاً بين لون الرجل والمرأة، اللّذين كانا معها، لم تكن ترتدي قناعاً كأختي مريْمو، وفتيات القصر من أندادها، إنما كانت ترتدي فستاناً ضيقاً على صدرها، كان نفور نهديها بارزاً منه بشكل مطل، رغم اللّيل وقمره، كما كانت ترتدي بنطلوناً، لم نتحقق من لونه جيداً، غير أن ما يمكن الجزم به، أنه ليس بالأبيض، ولا من أقربائه، كالأصفر ونحوه، انبعثت منها خلال مرورها بجانبنا، رائحة عطر نسوي منعش، بعدما تحققته بخياشيمي وشهوتي الشبقية الشبابية، ظهر لي بالقطع، أنه باريسي، لكون رائحته أتتني مشابهة تماماً، لرائحة ذلك العطر الباريسي، الذي شممته في طفولتي المتأخرة، على ذلك الظرف المنداوي، المختّم من لدن تلك الموظفة الباريسية الشقراء، عندما توصلت به لجارنا اللَّندشوني يومها.

كان المشهد مثيراً لنا حقاً، بعد مرورهم أمامنا، اجتهد كل منا في تقريب من يكون الزائر يا ترى بالقصر مع عائلته؟، وبعد عجزنا في التأويل، أنا وعليليل، ذهب عمي حَمُّو، إلى القول بأنه لا يعدو أن يكون أحد الغياب من أهل القصر، الذين غابوا عنه فترة طويلة، وذكر لنا عمي حَمُّو، أنه قد يكون ذلك الرجل المدعو بالغيواني، الذي أرسل لنا سلاماً، مع ذلك الرجل التواتي التونسي، الذي استقبلته صباحاً، يوم كان والدك بأرض السودان، خلال ذلك الشتاء إن كنت تذكر يا ابن أخي ، كما ذكر لنا ذلك المرسول يومها، من أن الغيواني قد تزوج تونسية، وأنجب معها بنتاً، سمّاها على

أمه أَميْزَارْ. كان توقع عمي حَمُّو، قد أذهب شطراً كبيراً من وهمنا، فأبعدنا عن الشك كثيراً، وقرّبنا من اليقين وفيراً.

كان وقت العِشاء ساعتها قد حان، فأذن المؤذن بأعلى سطح المسجد، بصوته الجهوري، فنفضنا عباءاتنا مما قد علق بها من تراب ذلك الجلوس، ولا همّ لنا غير الاستفسار والتساؤل، حول من يكون ذلك الغريب؟ ومن معه؟، فقد كان الضجيج صارخاً عند ساحة المسجد، قبيل الصلاة، حول الزائر، وقد فهمنا من حديث الحاضرين والمتجمعين، أنه الغيواني الزيواني، الذي كان قد هاجر إلى تونس، في أيام المسغبة، من عام الجراد والقنبلة، فألتفت إليّ عمّي حَمُّو، بدهشته البريئة، وقال لي في عجلة، قبل أن تبلغ رجله اليمنى عتبة للمسجد:

عمرك ومدة غيابه سيّان يا ابن أخي...

وما إن أتمّ هذه الجملة، حتى كانت رجله اليسرى، قد بلغت نهاية عتبة المسجد، فخرص عن الكلام، وأعقبها، بعبارة: **(استغفر الله)**.

صلينا العِشاء، مأمومين بإمامنا وشيخنا الأدرد، سيد الحاج لكبير، وبعد السلام، وقراءة الدعوات، والتسبيح، استعجلت صلاة الشفع والوتر، علّ ذلك يسرّع من خروجي، ومعرفة الفتاة وأمرها، فلم يكن عندي ولهٌ أو شغفٌ بمعرفة الرجل الذي كان معها، أو المرأة التي كانت برفقتهما، وإنما كان يهمني، ويأخذ بلب فؤادي، هو هذه التمرة التواتية التونسية الهجينة بينهما.

لم انتظر عليليل، الذي أصبح مرافقي، وعوّضت به صحبة الداعلي الغاصب. قلتُ، لم انتظر هذا الأخير لمرافقتي من المسجد للبيت كالعادة، فهرولت لعمّتي نفوسة، مخترقاً قنطرة القصبة، وبابها، وأسردايرها المظلم أصلاً، حتى بلغت الرّحبة المعراة لجلوسنا، فوجدتها غارقة في أمر الغيواني، وسبب خروجه من القصر، وزواجه بالتونسية، وابنته، فقد كانت بفرط فضولها، تسأل عن الخبر، وكم يركبها الغمّ والهمّ، إن علمتْ بأمر، ولم تجمع شاردته وواردته، ولا سيما بعد واقعة السبخة لكبيرة.

قالت عمّتي نفوسة لأمي بعجلة، قبل أن يدخل والدي من العِشاء؛ لأنه كان ينكر عليها كثرة الفضول، والثرثرة فيما لا يعني:

في عام الجراد والقنبلة، غادرنا ابن عمنا الغيواني الزهواني، بعد أن أفلس، وكثرت مغارمه وديونه، فباع سباخه، وقواريطه من ماء الفقاقير؛ لأنه كان مسرفاً على نفسه في إتباع الغيوان والشهوات، ما ظهر منها وما بطن، فقد كان مولعاً بالزَّمَار، والطبل، والشلاَّلي وداني داني، كما كان صاحب طَرْقة وحشيشة، ومصّ لحليب مرٍّ[171]، فكان لا يكفيه ما ينتجه بسبخته منهما، بل ويزيد عليه شراء، ولا سيما من الأخير، ما أفلسه، وجعله مضرب الإفلاس، ليس بقصرنا فحسب؛ بل بناحيتنا، فلم يجد من حيلة تنجيه، من شفاية الأعداء ونكايتهم، إلا أن يفرّ بنفسه. ومما ذكرته والدتي، في اقتطاعها لكلام عمّتي، أنه قال يوم خروجه من القصر قولاً، أصبح عندنا مثلاً سائراً، هو مورده ومضربه:

(أتْكَرْكيبْ لَكْدا، ولا أشْفايَة لَعْدا)[172].

فواصلت عمّتي كلامها:

وكان من حظّه، أن وجد السبب وافراً، في مغادرة الكثير من أهل ناحيتنا، للذهاب إلى تونس، بعد عام النّكسة من مولدي، فرحل مع الراحلين من القوافل إلى تونس. كانت حنحنة والدي عند دخول البيت، كافية للموسوسة...، لأن تقطع كلامها، وتدخل الخيط في الإبرة من شاربها.

كان تأخر والدي . الحاضر بيننا . لدخوله من صلاة العِشاء، في هذه الليلة واضحاً وجلياً، لكونه قد سمع بمجيء ابن عمنا الغيواني، فمرّ عليه ليسلم عليه ببيته، الموجود في الزقاق الثاني، المتفرع من أسردابر قصبتنا، فقصّ علينا والدي قصّته، بكثير من الاختصار، بغرض أخذ الدروس والعبر منها.

قال والدي:

الدنيا أَغْرَايَبْ...

وأَغْريبة لَغْرَايَبْ

حجيّة ولد عمي سيد الغيواني

خرج هارباً من الزَّلْط والتْشومير[173]

---

[171]- العفيون.

[172]- مثل تواتي معناه:

[173]- الفقر والحاجة.

ورجع غانماً بطوبتين
قاطعت عمّتي كلام والدي بشيء من الوقار، وقالت له ولنا جميعاً:
لو أتانا بحجرة، لكان خيراً له...
واصل أبي قوله:
آه من يامنك يا الدنيا...
أَشْحَالْ غَدَّارَة...
أيكون الواحد منا غاني أو تفقريه...
وأيكون الواحد فينا فالس أو تغنيه...
كان مفهوماً عندنا ما أوجزه والدي من قصة سيد الغيواني، فأتممنا عشاءنا، وتفرّقنا، أنا وأختي مريْمو، وعمّتي، وأمي، وأبي، فأخذ كل منّا مكانه من سطح البيت، متناثرين كحبات التوقيفة، بما فيهم أبي وأمي، فلم يكن الحال يسعفهما بالمبيت قرب بعضهما، لوجودنا رفقة عمّتي، وهي من هي، في الالتفات والفضول والوسواس الخناس، ولم يكن ذلك بخاف على أبي وأمي، ما كان لقاءهما نهاراً بالمصرية التي يبيت بها عمي حَمُّو، خلا أيامه الأولى بعد عودته من السودان، أو الأيام الثلاثة الأولى، من بعد خروجها من النفاس، و قد يكون الأمر بميشار السبخة، موفياً بالغرض ذاته، وبعيداً عن أعيننا وتأويلنا.
أذكر أنه قد زارني الأرق في هذه اللّيلة، وبتُّ في تلك اللّيلة المقمرة، أحسب النجوم، وأعد منازل القمر، عساني أنسى بذلك، رائحة ذلك العطر الباريسي، الذي تسلل إلى أنفي من ابنة الغيواني، فقد أتعبت نفسي، وحيّرت عقلي كثيراً، في تمثيل ومعاودة ارتسام وجهها وقدها في خيالي كما رأيت جماله، مخفياً تحت ستار اللّيل المقمر، ولم يظهر لي حاصل من تعبي وأرقي، وكل ما توصلت إليه نهاية، أنه وجهٌ مَسْرَار وصدق الله العظيم.
في صباح اليوم الموالي، وبعد شرب شاينا الصباحي، تحيّنت فرصة ذهاب عمّتي لابن عمنا الغيواني؛ لأنّي أعرف أنها حريصة على التحميد بالسلامة له كباقي سكان القصر، الذين لا يتفانون في التنقل للغريب، وإن كانت عمّتي، فوق هذا يهمها ما يمكن أن تتعرّف عليه من أخباره، وزوجته وابنته، قطعنا خطوات حتى بلغنا بيت

الغيواني، والذي لم يكن بعيداً عنّا بالقصبة، فتقدّمتْ عمّتي ودخلتُ خلفها، فسلّمنا عليه وعلى زوجته منوبية، والتي قدّمت لنا كعبتين من الحلوى التونسية، بينما لا زالت ابنته أَميْزَارْ نائمة بأحد السقيفات الدّخلانية، وبررت أمها موقفها، بحكم التعب والسفر وطول الانتظار.

استعجلت عمّتي نفوسة الابتداء بالكلام، فقالت للغيواني:

هذا اِبن أخي، وعمره مدّة غيابك، بالسنين والشهور، ففي عام ميلاده المشؤوم غادرتنا، وكنتُ إن كنتَ تذكر، آخر من ودّعك مع أمك أَميْزَار . رحمها الله . عند عتبة الباب للقصبة. كان سيد الغيواني ينصت لها بمرارة ووجع لتلك الأوجاع الماضية، عندها تنهّد تنهيدة مسموعة، سمعتها حتى ابنته بالسقيفة الدّخلانية، والتي كانت تستيقظ للتو من نومها، فقالت بصوت خافت مسموع، مختلط بآخر ترسبات الاستيقاظ من النوم:

شنو غادي بابا

فردّ عليها بلهجة تونسية فيها بقايا تواتية قليلة:

ما فيه ألا الخير بنتي، يزي عادي فك أعليا

كانت زوجته منوبية، هي الأخرى تصغى بدهشة وإعجاب لحديث عمّتي، حيث كانت تربط بما قاله لها زوجها وما كانت تسمعه منها، فالقصة بطبيعة الحال ليست غريبة عنها في سبب خروجه، أو حتى إفلاسه، وقد تحققتُ وجهها جيداً هذا الصباح، وجه كما خلناه في ليلة الأمس المقمرة؛ غير أن تلك الوشمات الخضراء الدّاكنة، كانت شادة لي في وجهها، واحدة رُسمتْ على متوسط صفحة جبهتها، والثانية وُشمتْ في وسط ذقنها، كما كانت بها وشمتان بموضع الأساور من يدها لجهة الكف، وقد كان منظر تلك الوشمات مريباً لي حقاً.

وبينما نحن في حديثنا، إذْ طلعت علينا، ابنته أَميْزَار، هي كما خمّنتُ مع محدثي ليلاً من لونها وقدها، طلعتها ساطعة، ميّالة في الطول لجهة أبيها أكثر من أمها، عيناها عسليتان ساحرتان، أرنبة أنفها واقفة كسيف عرق الرمل، وجنتاها ورديتان غير ناتئتين، سطحهما أكثر ما أقدره، بارتسام قبلة البالغ عليه، شعرها كستنائي، رقبتها مستلّة، صدرها نافر، لم يخيبنا اللّيل في تصيّد نفوره، يبدو أنها كانت متعمدة

إبراز ذلك بدعامتي نهد، تلبس منامة وردية، فجلست قبالتنا، وتناولت فطورها الصباحي بكل راحة، بيضتان مسلوقتان، مع كعبة حلوى تونسية، وكأس من الشاي الخفيف الوسطاني عندنا.

كنت أرمق بنظري الخجول طقوس مضغها، وشربها، مع ما يمكن أن أسرقه خلسة دون علم عمّتي ووالدها ووالدتها، من جمالها وروعتها. كان الوقت ضحىً ساعتها، حينما بادرت عمّتي بالخروج من عندهم، فخرجت معها، وقلبي يدق، ومشدود من فرط ما راقني من روعتها.

الحب بدايته وارهاصه الدهشة الأولى التي تسبق الإعجاب.

في أواسط الأيام التي قضتها أَميْزَار بيننا بالقصر بصحبة والديها، زارت بيتنا في أحد القيلولات الحارة، كانت أمي وقتها تنسج طبقاً سعفياً بالزيوان، مع جارتها أمبيريكة، التي كانت تنسج هي الأخرى تَدَارَة سعفية من الزيوان أيضاً، فبينما أمي جالسة ممسكة بمخرز يسمّى اللَّشْفَة[174] لتثقب بها ثقباً، في دورة الزيوان المنسوج بالسعف المبتل بعد يبسه، إذ دخلت عليهم أميْزَار، فسلّمت عليهما، وسألت عن أختي مريْمو، التي كانت لحظتها نائمة مع عمّتي في السقيفة الدّخلانية.

بعد ما يقارب نسج دورتين من دورات نسج أمي لطبقها بالسعف والزيوان، نهضت عمّتي وتبعتها أختي مريْمو من نومهما القيلولي، وسلّمتا على أميْزَار، فجلست عمّتي بعيداً عنهما، وهي تحمل بيدها اليمنى مروحة يدوية سعفية، كانت تنشّ بها الهواء ليجفف عرقها.

أما أختي مريْمو وأميْزَار، فقد تطرفتا بسقيفة الباب، وبالرغم من أن أختي مريْمو كانت تكبرها بعامين أو أكثر، إلا أن أميْزَار كانت تبدو هي الكبرى، ليس في نهديها فقط، بل وحتى في أردافها، وطول شعرها، فقالت أميْزَار لأختي مريْمو سؤالاً وجيهاً وعميقاً:

لماذا يا مريْمو، نهودك ونهود بنات القصر ينظرن للأسفل، ونهودي تنظر للأمام؟...

---

[174]- مسمار حديدي صغير، حاد في رأسه، به مقبض خشبي، بحسب قبضة اليد.

لم تكن الجرأة قد بلغت بأختي مريْمو، ولا أن تدرك الجواب بالبداهة على سؤال أميْزَار، بالرغم من أنها تصغرها بعامين وزيادة قليلة.

ولما رأت أميْزَار أن أختي مريْمو قد زارها الوجل، وركبتها الحيرة فعلاً، كشفت لها عن بداية صدرها، فظهر لأختي مريْمو لباس وردي بارز، كقشرة البيضة المجوّفة يحتضن نهدي أميْزَار، فأبلغتها من أنّه دعامة النهد، وهذا هو السبب الذي جعله نافراً ينظر للأمام، ونهدها نائم يستحي للأسفل. عندها تبسّمت مريْمو تبسماً فاضحاً، يكشف عن كبتها وقلّة معرفتها.

كان المشهد مغرياً لأميْزَار، لأن تبتليَّ مريْمو في أمر آخر من هذا النوع، فسوَّتْ قليلاً من الرمل بكفها، كان أمامهما بسقيفة الباب، ورسمت لها فيه صورة قلب يخترقه سهم، وقالت لها فاحصة متهكمة:

عمَّ يعبّر هذا الرسم يا مريْمو؟

بهتتْ مريْمو بهتة غير مطموسة، وقالت بإحساس المقزِّم لنفسه، أمام انبهاره بغيره:

والله ما أعرف...

قهقهت أميْزَار قهقهة غير شامتة، غلبها فيها ما رأتْ من قلّة معرفة مريْمو، لاستعارات الحب والعشق، في قاموس المحبين والعشاق.

بعد هذا بأيام غادرنا الغيواني مع منوبته وأميْزَاره، لتترك لي أميْزار قليلاً من بقاياها، لأنسج منها أحلاماً وردية، عسى ذلك يلطّف وينعش حرّ صيفي.

قبل أن ينقضي صيف هذه العام، توفى صديق والدي اللّندشوني لعوج، وقد كان والدي ساعتها ببلاد السودان، ولم يحضر لوفاته، أما أمي فقد حزنت مع صديقتها أمبيريكة حزناً شديداً، فاحتجبت أمبيريكة ببيتها ورابطت به، مدّة أربعة أشهر، ولذلك كان سكان قصرنا يسمونها الرَّابْطَة، وقد ازدادت ملازمتي لابنها عليليل كثيراً خلال هذه المدّة، لكوني وجدت فيه تعويضاً للداعلي اللّعين، حتى عدنا لا نفترق إلا عند النوم، وما إن تمّتْ عِدّتها، حتى جاءت عيشة أمباركة، والمشّاطة مولودة، ونساء كثيرات من قصبتنا، منهن في هذه المرّة، أمالالالة زوجة سيد الهيب، والحسنية زوجة القنينة، ونانة عيشة زوجة أباكريم، بينما تخلّفت ماما زوجة أباعلّة، وأفيطنة زوجة أبافضيل، وقليلات من قصرنا كالشريفات، لالّة علّو، ولالّة تبيرو، فأقمن لها فرحاً

لخروجها من العِدّة، وفي عشية ذلك اليوم قبل المغرب، أخرجوها بلباسها القديم، الذي رابطت به خلال فترة الرّباط، قلت أخرجوها إلى حفرة خارج القصر، فنزعت لها عيشة أمباركة لباسها القديم، وألبستها لباساً جديداً، كما تخلّت في هذه الحفرة، عن كل ما كان يلازمها في ربطاها، من أواني طينية وتمائم، وأعطت أمي لِإبنها عليليل إزاراً جديداً ليعطيه لأمه بعد اختفاء الشمس في وكرها، وما إن غابت الشمس في جحرها، وهي قابعة في تلك الحفرة، حتى انطلق عليليل يجري لأمه بذلك الإيزار، وعيشة أمباركة تقول له من بعيد:

(الزعيم يجري لأمو)

بعد هذا تعود مع الظلمة الأولى من المغرب لبيتها، في غير الطريق التي خرجت فيه، والنساء يرددن معها في الطريق:

بيكْ جيْنَا قاصدين

يا مولانا ما أتْرَدْنا خايبين.

الزقاق الحادي عشر من قصبة القصر الطيني

بعد أن اتممتُ أنا وعليليل، دراستنا الإعدادية خلال شهر ماي الماضي، فاجتزت أنا امتحان شهادة التعليم المتوسط، والمسمّاة وقتها بشهادة التعليم العام، واجتاز الداعلي المتمرد رفقة عليليل شهادة الأهلية للتعليم الأصلي، ونلنا مرادنا جميعاً من النجاح.
فأما أنا فاخترت شعبة الآداب بالمتوسطة المختلطة، حيث أدرس الثانوية العامة بها، أما الداعلي اللّدود وعليليل، فواصلا تعليمهما الثانوي الأصلي بالمعهد، وظلّ ذلك التقارب والتباعد بيننا في المناهج والمقررات طيلة الدراسة الثانوية، كما كان الأمر في الإعدادي، حتى أُصدرت الأمرية التي تدمج التعليم العام مع التعليم الأصلي سنة 1976، ما سوف يجعلنا مترافقين لاجتياز امتحان واحد لشهادة البكالوريا ببشار، وقد كان ذلك خبراً غير سعيد بالنسبة لي، لكوني سوف ألتقي غريمي على سبختي، في الحافلة.
ركبنا الحافلة المتوجهة نحو ولاية بشار صباحاً، وقد كان ذلك في ذات ماي من منتضف السبعينيات، وبالرغم من أن هذه الرحلة كانت بالنسبة لنا فرجة واكتشافاً جديداً، إلا أن وعورة الطريق وطوله، الممتد بين أدرار وبشار، ومرافقتي لذلك اللئيم، كانت تعكّر عليّ صهو الرحلة.
وصلنا الثانوية العامة المختلطة ببشار ليلاً، وقد صادف نزولنا بها نزول دفعة أخرى من المشرية والعين الصفراء، هم الآخرون أتوا للغرض ذاته، فأمرنا الحارس العام للداخلية، بأن نتجه صوب المطعم، فأخذنا أماكننا من الكراسي والطاولات، التي كانت قد وضعت عليها رغائف الخبز، والمعكرونة، بعدها اتجهنا نحو المراقد فنمنا، كان الامتحان حتى إلى بعد الغد، وكان هذا أمراً مقصوداً من مدير متوسطتنا المختلطة، ومدير معهدهم الأصلي، حتى نأخذ حظّنا من الرّاحة، قبل الدخول للامتحان.
ذاكرنا دروسنا في اليوم الموالي بفناء الثانوية، أنا وعليليل، والداعلي بعيد عنا. بيد أن عليليل كان قد أصابه حزن كبير خلال السنوات الثلاث، نظراً لوفاة والده لعوج، ما جعل تحصيله يقلّ بكثير، عما عهدناه عليه في السنوات الماضية.
اجتزنا امتحان البكالوريا بشكل عادٍ، دون مشاكل تذكر، ولا سيما بالنسبة لي، لكوني تدرّجت في التعليم العام، وقد ذكر لي عليليل، وروى لي عن الداعلي، أنهما وجدا

صعوبة تذكر في بعض المواد، وبخاصة في الفرنسية، لأن دراستهم لها بالتعليم الأصلي كان زهيداً ومقتصداً فيه، كما أسلفت.

عدنا إلى أدرار وقد أصابني في العودة ما أصابني في الذهاب من أمره...، فانتظرنا بها يوماً واحداً، لكون الطريق الرابط بين أدرار وخط جريد توات، قد عُبِّد خلال هذا العام ، فكنّا في السنين الخوالي، قبل تعبيده، نمكث الأيام الثلاثة، أو الأربعة، بل أحياناً مدة أسبوع حتى تأتينا حبيبتنا سيارة 403 النفعية.

قطعنا الطريق، وكأننا نمشي على الحرير، دون غبار طيني أو حفر، ما جعل وصولنا للقصر ميسوراً، وكالعادة قفزنا منها كالضفادع، وودعنا غيرنا من المتبقين على ظهرها، والكلّ يدعوا للآخر بالنجاح، ولا أظن أنّي مع الداعلي، كان لبعضنا هذا الشعور، ولاسيما مني.

فأما أمي فقد تصدّقت على ولي قصرنا سيدي شاي الله، إن نجحت أنا وعليليل ولم ينجح الداعلي، فسوف ترصد له زيارة معلومة له بضريحه، وتمليحة معتبرة لحفيده سيدي مول النوبة.

مرّ شهر ونصف على موعد امتحاننا، وكلنا ترقب لظهور النتائج، حتى أُبرقت النتائج من بشار لأدرار، فأبرقوها بدورهم لمقر بلديتنا، كان حظ بلديتنا من الناجحين، خلال هذا العام، هو أربعة تلاميذ فقط، أنا والداعلي المغضوب عليه، وواحد من القصر الفوقاني، وآخر من القصر التحتاني.

سُرَّ والدي بنجاحي، وحزن لعدم نجاح عليليل ابن صديقه المرحوم اللّندشوني، ولعن سراً وجهراً نجاح الداعلي، وقد كان ذلك مصادفاً لأيامه الأولى من رجوعه من بلاد السودان، ولم يكن يجري على لسانه أيامها، غير ترديده المكثر لمثل شعبي عندنا سائر:

(رَبِيْتَكْ يَا أَجْرِيتِي أوْ تَاكْلِيني)[175]

فأمر عمّي حَمُّو، الذي قد بدأ يتعلم الذبح، بعد استقلال والد عدونا عنّا...، قلتُ فذبح كبشاً سميناً، من أغنام السيداون التي جلبها معه في تجارته من هناك، فترددت أمي في إفراد التمليحة لسيدي شاي الله وحفيده مول النوبة، فرجاء النجاح قد تحقق

---

[175]- مثل يضرب لناكر الخير.

لها من جهتي، لكنه لم يتحقق لها من جهة ابن صاحبتها القديمة قامو، ورغم كل هذا فقد أعطت لسيدي مول النوبة، ربعاً أمامياً من الشاة المذبوحة، كتمليحة له، لتصدقها على جده سيدي شاي الله.

أما أمبارك وزوجته قامو، فقد أعلنوا الفرح بلا خفية أو حشمة، بنجاح ابنهما، واعتبرا ذلك انتصاراً بارزاً علينا، وبداية لاسترداد الحقوق المهضومة في العقود والقرون الفائتة...

لم يدم غياب الغيواني عن القصر طويلاً في هذه المرة أكثر من ثلاث سنوات بالتمام والكمال، فمع حلول الصيف الذي أُبلغت فيه بنجاحي في شهادة البكالوريا، كان الغيواني قد قصد زيارة القصر، حيث خلّفت فيه تلك المرّة الوحيدة والأخيرة لزيارة القصر، إيقاظاً لحنين أمه بالقصر وأهله، وذكرياته الحلوة والمرّة، وما أنجرّ عن ذلك من تقلّب سفنه في بحر الديون، و أنهار الإفلاس، جراء ما أسرف فيه على نفسه من إتباع الملذات.

كان كل شيء في القصر قد تغير، ولم يعد هناك ما يجعل أَميْزَار، تنظر إلى حالنا بنوع من الشفقة والريبة، كما كانت تنظر إليه في زيارتها السابقة، فمجيء الكهرباء، وما أتى معها من ثلاجة، بدل القِرب والتَّاسوفْرَاتْ[176]، اللاّئي كنا نستعيض بهن في تبريد الماء، كما أن مرور الطريق المعبّد والمزيف على قصرنا، قد قلّل هو الآخر من متاعبنا، ووصول الناس إلينا.

فبينما كنت أتلذذ بانتشائي ونجاحي بشهادة البكالوريا التي فزتُ بها، خلال ذلك الصيف الرائع والجميل، وحسبك، في القصور أن تكون ناجحاً في البكالوريا، معنى هذا أنك سوف تكون محظوظاً، فالقصر كله، يجري اِسمك على لسانه، ويشار إليك بالبنان دون أعمامي الكبار، كنا ستة تلاميذ ممن حالفهم الحظ في النجاح على مستوى خط الجريد، وهو إنجاز رائع، واستحقاق بارز، كنت أدّخره عساني أكون ملتفتاً إليّ من أميْزَار، ومحظوظاً في قلبها. كانت نرجسيتها وتعاليها، في الزيارة السابقة، جعلها تنظر إلينا في استخفاف ظاهر.

---

[176]- مفردها تاسوفرة، هي قربة شاقولية، بينما القربة المعروفة في اللهجة التواتية بالقربة، تكون إلا أفقية.

كان وصول سيد الغيواني مع زوجته منوبية وابنته أميْزار للقصر اصفرار شمس ذلك اليوم الصيفي، وقد كنت ساعتها بسبختنا رفقة عليليل، فوضع كل منا بردعته على حماره، وقفزنا على حميرنا نتسابق ونقطع الطريق الموصل إلى السباخ، حتى شارفنا القصر، وقد كان سكان القصر ساعتها، يتهيؤون لصلاة المغرب، ربطنا حميرنا بمرابطها، وما إن بلغنا القنطرة من القصبة، حتى سمعنا مجموعة من النساء يتحدثن عن مجيء الغيواني وأهله، كان سماع الخبر بالنسبة لي أكثر بهجة من عليليل، ولعلّه يعرف ما بخاطري نحو أميْزار، لكثرة ما حدّثته في عزلتنا عن جمالها وما أصابني من حبها، ابتسم ابن جارة أمي الغالية...، وهو يشير بقلبه، للتهنئة، بالوافد الجديد.

لم تكن عندي حاجة في هذه المرة، لأن أنتظر عمّتي نفوسة لأذهب معها، فالغيواني وزوجته وابنته، صاروا يعرفونني، ولا سيما سيد الغيواني؛ لأنّي أشكّل له اختزالاً، لسنة خروجه من القصر، كما أن عمّتي نفوسة قد سبقتني عندهم، وبشرتهم بخبر نجاحي، ما يجعل دخولي عليهم مرحباً به، لست أدري كيف اختزلت الطريق من قنطرة القصبة حتى بيت الغيواني، دخلت عليهم، وقد كانت عمّتي ساعتها تقصّ عليهم استحقاقي، بعد أن أخبرتهم بموقعة قيامة **السبخة لكبيرة...**، فقالت مسرعة:

هذا هو العريس

لم يكن لفظ العريس يطلق دائماً على عريس الزفاف؛ بل يتعداه ليصير مدحاً لكل صنيع جميل، فنهض الغيواني وسلّم عليّ، شاكراً لي صنيعي، وكان الأمر كذلك من زوجته منوبية، أما ابنته أميْزار، فقد استقبلتني ببرودة، جعلتني ألعن الفوز بالشهادة وما دونها، وقد خاب حدسي فيها حقاً، فبعدما كنت أرى تفوقي في الدراسة وإحرازي على الشهادة، سوف يشفع لي في ودّها، وتقربي منها، كل ذلك أضحى سراباً عندي.

كان انكسار خاطري، ليس بالأمر الخفي على الغيواني، فخفف عنّي بعضاً منه، أما زوجته فقد وجمت عن الكلام، واختلط عليَّ حال أمرها، أهي مؤازرة لفعل ابنتها؟، أم ضده؟

الأكيد عندي، أن هذه الواقعة، عكّرت عليَّ حتى نشوتي وابتهاجي بنيل الشهادة، وما كان لي من طعم الفرح بالفوز قبل ردّها، فخرجت من عندهم مكسور الخاطر،

مُشفقاًعليَّ، أجرُّ الخطى، ويعلم الله أنّي لا أدري كيف أكلت عشائي، ولا كيف بت تلك الليلة.

الحب عند أهل القصور لا يأكلونه بالملاعق والشوكات والسكاكين، بل يأكلونه بتكوُّر اليد، مثله مثل تكوير لقمة الكسكس...

في حدود علمي ومبلغ سمعي، أنّي أكاد أكون الأول والوحيد الذي صرّح جهاراً بممارسته لطقوس الغرام، بناحية خط جريد توات، قد تكون ثمة تجارب قبلي، لكنها على أية حال، تبقى خفية ومحتشمة، إذا ما استثنيت تلك الرواية الغرامية الأسطورية، التي روتها لي عمّتي نفوسة، عن حب الشلاَّلي وغرامه بمَروشَة.

كان غياب قامو وأمبارك وابنهما عن البيت، مثار حيرة كبيرة من الغيواني وأسرته، وقد كان ذلك جلياً لهم من اليوم الأول لنزولهم، وقد سكت الغيواني مع زوجته عن السؤال، بينما سألت ابنتهما أميْزار أختي مريْمو عن سبب هذا الغياب غير المبرر، والسكوت عنه حرام، فحكت لها حكاية السبخة الكبيرة...، وتنعم أمبارك بها مع عائلته، وما أصاب عمّتي من جنون، فقدت فيه عقلها، لولا أن الطالب أيْقشَ، استدرك أمرها بطرد الجنّ عنها.

صبّرت نفسي كثيراً بحب أميْزار، لكنها ظلّت ناكرة ونافرة مني، فقد بعثت لها برسالة بريدية، كنت قد نقلت عنوانها، من رسالة قد بعثها والدها لوالدي خلال الشهر الماضي، فوجدت الفرصة مواتية لأن أرسل لها رسالة قصيرة أكاشفها فيها بحبي لها.

ابنت عمي أميزار

من أرض الزيوان، ومنبت الآباء والأجداد، أبعث لك بسلامي الحار، آملاً أن تجدك هذه الرسالة في صحة وعافية، مع الوالد والوالدة، لا أخفيك سراً أنّي ولعت بحبك، وفتنت بغرامك، ولم أجد من برد يبرد جمرة صبابتي، إلا أن أخطّ لك هذه الأحرف، الملتاعة بنار الشوق والحب إليك...

ابن عمك الزيواني

القصر الوسطاني بتوات يوم: 10/06/1981

انتظرت فترة الصيف كاملة، حتى جاء الرّد من أميْزار، وقد كانت رسالة مقتضبة، كان وقعها كبيراً وأليماً عليَّ، وما جاء فيها بعبارة موجزة:

الزيواني التواتي

تحية وسلام، لا يشرفني أن أحب واحداً من أهل زيوان أبي.

أميزار

تونس: 31/08/1981

فأصابني إحباط كبير، كما كثر فيّ الانطواء، وقلّة القوت، ما زاد من نحافتي بشكل غير مستور، ما دعا أبي وأمي وعمّتي لمدارسة أمري، وإن كان أبي وأمي يجهلان قضيتي، فإن عمّتي كان عندها يقين، لا يقاربه الشك، أن ما أصابني، هو من حبي وغرامي لميْزار، لكونها قد لمست بفضولها، وكثرة التفاتها، ما راعني منها يوم ذهبت معها أول مرة لزيارتهم، عندما حلّوا بالقصر أول مرة.

لم يكن أمراً يسترعي أنتباه عمّتي، من أمر الغيواني؛ لكونه يحب أميْزار، بالرغم من أنها طوبة، والطوبة لا ترث في أعراف قبيلتنا، وهو منها.

بدا وكأن الأمر استغربته حقاً، وسألت نفسها متعجبة:

الغيواني هو ابن عمنا

وما يسري علينا يسري عليه؛

لكنه رغم هذا يحب طوبته أميْزار

استدركت عمّتي قولها، بعد أن لجمته بالتذكّر:

آه فهمت، ربما لأنه ليس له سباخ وماء الفقاقير، لكونه قد باع ما عنده...

ثم قالت بعد هذا في نفسها دائماً:

قد يكون ذلك، لكون اسمها من أمه...

الزقاق الثاني عشر من قصبة القصر الطيني

مع حلول نهاية السبعينيات، بدأ خط جريدنا يستفيق من غفوته، ويستوعب التغيرات الوافدة إليه، عن طريق الكهرباء وما يمكن أن تجلبه معها من فنون الحضارة والبهرجة، ناهيك عن الطريق المعبّد، مع ما يمكن أن يسهل وصول ما لم يكن يصل، وبسرعة أقل، حتى الذهنيات هي الأخرى نالت حظّها اليسير من هذا التغيير، فبدأ الآباء يقتنعون رويداً رويداً، في الدفع بأبنائهم الذكور نحو المدارس، كما بدأ البعض النادر منهم يقتنع تدريجياً بتدريس البنات حتى مستوى السادسة، اللّهم إلا قلّة قليلة منهم، ظلّت متحجرة ومتمسكة بما كان عليه الآباء والأجداد، بمن فيهم أعمامي الكبار، الذين أقسم كبيرهم بعظمة لسانه، أن لا يسمح لأبنائه وأبناء أخيه بالدخول للمدرسة، ومن كان في ضمانتهم، كالصويلح ولد البرّاح، وما كان عمي الأكبر الحاج قدور يتندر ويتهكّم به عليّ، أنّي ابن المنكول[177].

في الخريف الموالي لذلك الصيف، انتقلنا متفرقين مع صديقي القديم... للعاصمة، لمزاولة دراستنا الجامعية هناك، فاخترت أنا التاريخ، لكوني فتنت به مذ درسني التاريخ، ذلك الأستاذ العراقي المدعو جاسم، خلال الفترة الإعدادية بالمتوسطة المختلطة، وقد يكون هناك سبب آخر زرع في حب التاريخ والولوع به، وهو مدى شغفي وحبي لمملكة الزيوان، ومعرفة تاريخها القديم، والوسيط، والحديث، والمعاصر، كل هذا كان يمليه عليّ ضغط داخلي في الوعي وفي اللاوعي، من معرفة أخبارها، ومرور القوافل التجارية بها، وبالجملة معرفة حضارتها وثقافتها.

أما خصمي...، فقد اختار الحقوق، وقد أصرّ على ولوجه، ولست أدري، أهو لطلب المعرفة القانونية؟، أم أن هناك سبباً آخر يجعله يقدم على دراسة الحقوق دون غيرها؟

لم يكن عندي أدنى شك، من أن دافع التكوين القانوني، هو مفصول عنده بمعرفة قانون حقوق الإنسان، وكيفية انتهاج السبل القانونية والمشروعة، لتغيير هذا الواقع، الذي وجد عليه والده أمبارك، وأمه قامو، وجدّته لأمه حَدْهُم، وأجْميْعَة، والصويلح، و والده البرّاح، وبيدارية، وغيرهم من خمّاسي القصور الأخرى.

---

[177]- لفظ تهكمي، الغرض منه الصخرية من اللّيكول ecole.

التحقت أنا بالجامعة المركزية لمزاولة دراسة التاريخ، والتحق المناضل الحقوقي... بكلية الحقوق ببن عكنون. كانت العاصمة بالنسبة لي وله وإن كنا لا نلتقي البتة، بمثابة الطائر الذي تحرّر من قفصه، فالقصر بطقوسه وأعرافه المنيعة، وعاداته المحصّنة، يجعلك تعيش في بيئة اجتماعية ضيقة ومغلقة، فالوجوه التي تصبّح عليها، هي ذاتها التي تمسي عليها، فإن قاق الدجاج برحبة شيّاهنا سمعه جميع أهل القصبة والقصر، ما يجعلك مكبوتاً، لا تمارس حريتك كما تحب، فوجدنا في فضاء العاصمة، وحدائقها، وأروقة جامعاتها، الفضاء الرّحب، للتعبير عن ذواتنا المكبوتة الآتية من ترسبات المجتمع القصوري.

فبالرغم من أن تخصصي كان تاريخاً، فقد كانت موهبتي باهرة في الشعر، ما جعلني أنال أكثر من جائزة مدرسية، خلال فترة دراستي بالمتوسطة المختلطة بأدرار. أما الدراسة بمعهد التاريخ، فقد شفعتْ لي معرفة معارف أساتذتي الكرام، بتاريخ مملكة الزيوان، وما ذكره فيها ابن خلدون، وابن بطوطة، والحسن الوزّان المدعو بالأسد الإفريقي، قلتُ، فإن معرفة شيوخي بتاريخ منطقتي، سهّل عليّ الكثير من الصعاب، وأماط عني لثام الخجل، ما أصبحت فارساً مغواراً في إيقاع فرائسي، ليس من صديقاتي الطالبات؛ بل حتى من بعض الأستاذات، اللائي سحرتهن بعالم توات العجيب، بما في ذلك عالم الجن والشعودة.

كما أن ذاكرتنا الصافية نحن أهل الزيوان، قد ساعدتني كثيراً في إثبات تفوقي وبجدارة، لسهولة الحفظ عندنا، ولا ينفك الحفظ عند دارس التاريخ وطالبه، وهو أكثر ما يخشاه ويتوجسه الطلبة عندنا بمعهد التاريخ، الأمر الذي جعلني متفوقاً ومغدقاً عليّ من النقاط العالية، ما خلق مني طالباً مدللاً من الطالبات معنا، فقد كن كثيرات، فيهن الجميلات الساحرات، وفيهن المقبولات، وفيهن بطبيعة الحال غير المستملحات، وتلك خليقة الله في أرضه.

أما الحقوقي فقد كان حاله ببن عكنون محل دعابة وطرفة، وإن كان لونه الفاحم، قد أكسبه خجلاً وترديداً، إلا أن تحصيله وذكاءه، كان يدنيه من الأساتذة والطلبة، ما جعل الأمر يتطور بينه وبين إحدى الطالبات الشقروات، المنحدرة من ناحية متيجة، حتى وصل الأمر بينهما للعشق.

فبالرغم من أننا من قصر واحد و ولاية واحدة، ونسكن في حي واحد، إلا أننا لم نكن نلتقي بالمرة، وقد يحدث أن أخرج للعاصمة، وألتقيه من بعيد بقاعات السنيما، التي كان عطشنا إليها ظامئاً، لمشاهدة الأفلام الأمريكية البوليسية والمغامراتية، والتي كانت تتخللها مشاهد جنسية شبه عارية، كنا ساعتها نلعن الكاميرا والعدسة في التحوّل عنها.

كانت سنوات الجامعة تمر بوتيرة سريعة، سمحت لي الفرصة فيها، لأن أعتليَّ منابر الشعر بالجامعة، ما جعلني محظوظاً في التفات الصحافة إليّ وبإيعاز من الشيوعيين، فنشرت لي جريدة الشعب ثلاث محاولات شعرية، توسّط لي في نشرها مسؤول التنظيم الشيوعي بالجامعة، كما أجرت معي مجلة المجاهد الأسبوعية حواراً، ما جعل نجمي يظهر ساطعاً في المحافل الثقافية، فبسطت لي التنظيمات الشيوعية بالجامعة بساطاً وتيراً من الاحتفاء والشهرة، فسرعان ما آمنت بمبادئهم، ما جعل إيماني يزداد بفكرة الاشتراكية والشيوعية، وبالتالي نبذ الإقطاع ونظام الخماسة. الأمر الذي جعلني أفكر في مراجعة موقفي من الداعلي وأبيه وأمه؛ بل وكل المقهورين...

ذات صيف من منتضف السبعينيات، أكون قد بلغتُ وصمتُ، ربّما عشق أميْزار قد عجلّ بلوغي وصيامي، فالمعتاد عند شباب قصرنا، أنهم لا يبلغون إلا في السابع أو الثامن عشر من عمرهم، بمن فيهم الداعلي، قبلي بسنتين، لكني كنت الاستثناء بينهم. لا شيء يبرر تقدّمي عليهم في البلوغ، غير استيقاظ حاستي الجنسية من أميْزار.

فعملت لي أمي عادة تسمّى تمليمان، فكنت في هذا الصيام الأول كالعريس، يوفّى لي أكثر من حقي في كل شيء، وفي اللّحم أكثر، غير أن ما أدهشني حقاً، هو تلك العناية الملاّزمة والدائمة من عمّتي، رغم وصولي وبلوغي مبلغ الرجال، فكانت تحرص عليّ وعلى أكلي في أيام الصيام هذه، كحرصها على رضع حليب أمي، وأنا في المهد صبياً. معذورةٌ هي أختي مريْمو، ومعذورٌ هو صديقي الداعلي، لما يلاحظانه من عناية مبالغ فيها لي...

طوت القصر شهور بعد هذا، حتى زارنا الوباء في آخر هذا العام، فلا الشاة ضرّ ضرعها، ولا المحصول البكوري كالطماطم الوافدة، ولا القمح، قد وفيّا بالمرغوب بأهل

القصر، كما انتشرت بين صبيانه في هذا العام، أمراض معدية، كالجدري، والقوب، والقرع، فرأى الناس في هذا العام بالقصر عام الرّمادة، ما جعل مسؤول القصر الحاج عبد السلام، لأن يستدعيّ عيشة أمباركة بنت بلّة، لتقوم بطقوس هَمَرْمَرْ، رفقة ابنتها ومعاونتها النايرة، فخرجت عيشة أمباركة لبستان المسجد، وقطعت جريدة نخل خضراء، ونزعت شوكها، وسيَّرت سعفها، سيوراً رقيقة رفيعة، بعدها قامت بصنع خليط أَخَضْخوضْ، من السوائل ومسحوقات بعض الحشائش كورق الحنّاء، والمجبور، والقرطوفة، لتضعه في قدح، بعدها تطوف بأرجاء القصر، داراً داراً، وكلما وقفت أمام بيت، خرجت ربّة البيت وعلّقت بتلك الجريدة، خيطاً من بيتها، حتى تأتي على آخر بيت في القصر، وهي تقول مع ابنتها النايرة، والصبيان يرددون خلفها:

(هَمَرْمَرَ علي، ترفع يا الباس، عقود النبي)

ولما تكمل دورتها، تخرج خارج القصر، مع من معها، بتلك الجريدة، المملؤة بالخيوط الملونة، وتحفر لها قبراً، وتقبرها فيه، ظناً في اعتقاد أهل القصر، من أن ذلك يذهب عنه الوباء والأرواح الشريرة.

ليس ببعيد عن هذا؛ بل وخلال ذلك، أقولها بصراحة أن الحيلة أعيتني ، في شد أنتباه أميْزار، وجعلها تؤمن بحبي، فشكوت حالي لعمّتي نفوسة، وكان حالي وهي الأعلم به، قد آلمها صدقاً، فخطرت ببالها فكرة، وقالت لي:

يقول المثل السائر عندنا بتوات، يا ابن أخي:

(اللّي ما جابو المكتوب، أيجيبوه لكتوب)

كنت متكئاً فعدّلت وضعية جلوسي أمامها، فواصلت حديثها:

ولماذا لا نتوسل في قضيتك بالطالب أيْقشَ؟

أو ليس هو الذي تودد به، وتوسل به أعمامك؟

لأن يضرب لهم خط الجدول، الذي أسقط به حمل أمك الأول والثاني.

فقبضت عيني قبضاً خفيفاً، والدهشة تلفني، وقلت لها في استغراب، بعد أن وضعت ثقافتي الجامعية خلف ظهري:

وهل تنفع جداول أيْقشَ مع أميْزار يا عمّتي؟

عندها أرسلت قهقهة مسموعة، بلغ صدى صوتها حتى آخر رحبة الجلوس المعرّاة، عندها تفطّنتْ، ووضعت باطن كفها على فمها، خشية تفطن أمي لمضمون حديثها، لكونها قد أصابتها عقدة من أيْقشَ، وبما فعله بحمليها الضائعين. ولما رأت عمّتي انتباه أمي لحديثنا، قالت لي بصوت خافت مهموس:

يصبح ويفتح.

في صباح اليوم الموالي، تصيّدت خروج عمّتي من بيتنا ضحوة، وكلي استعجال لإكمال وصفتها المدهشة، فعرضتْ عليّ أن ننزوي معها في بيتنا الثاني بدرب الشهود، الذي أصبح خالياً...، دخلنا وأغلقنا الباب دوننا، فقالت لي عمّتي بعدما كشفت لها عن استعجالي:

يُقال أن الطالب أيْقشَ يسخّر الجان، واليوم يوم جمعة، والجن لا تخرج في هذا اليوم، وعليك بالذهاب له، في عشية الغد من السبت.

مرّت عليّ عشية الجمعة وليلها بطيئة، حتى كان اليوم من الغد، وقد استبطأت صباحه كذلك، ولما صلّى العصر، حملت معي دريهمات، كنت اقتطعتها وخليتها من منحتي الجامعية، للطوارئ والنائبات، قطعت الساحة وحدي مهرولاً، مخترقاً الزقاق التحتاني الموصل لبيت الطالب أيْقشَ، فداره ليست بخافية عني أبداً، فقد سمح لنا تجوالنا وتطوافنا أيام العرفة بالكتّاب، لأن نعرف كل شاردة وواردة من بيوت القصر، ما ظهر منها وما بطن.

كان بيتاً شبه خالٍ، وكما روت لي عمّتي، فقد كان يسكن لوحده مع شياطينه وعفاريته، فقد طلّق زوجته في أيام شبابه الأول، دون أن يخلّف معها بنين، وتكفّلت به خادمته لَخْويْدَمْ.

بلغتُ بابه، وقد كان الوقت ساعتها عصراً، باب خشبي، عهدي به كبابنا، وقد كان الباب ساعتها مفتوحاً ثلثه، فركبتني رعشة شديدة، فطرقت الباب شبه المفتوح، فسمعت صوتاً يأتيني من آخر السقيفة:

من بالباب؟

فقلت في رعشة:

لمْرابط.

فأمرني بالدخول دون أن يقوم من مكانه، فدخلت من الثلث المفتوح من الباب، والعرق يتصبّب مني، حتى بلغت السقيفة الدّخلانية من البيت، وإذا بي أقف أمام شيخ طاعن في السن، لم أقدر قامته على أيّة حال؛ لأنه كان جالساً، لونه أسمر سمرة مفتوحة؛ لكنها داكنة، وجهه مستدير، تسكنه عينان مخيفتان براقتان، جبهته عريضة، بها انثناءات، له لحية بيضاء كثيفة؛ لكنها غير متنوّرة، كلحية إمام قصرنا سيد الحاج لكبير.

وقفت أمامه برهة من الزمن، دون أن يأمرني بالجلوس، وكان ساعتها يتمتم بكلام لا أفقهه، وبعد لحظات أشار إليّ إشارة يد بالجلوس، فجلست والرعشة لا تفارقني.

كان يجلس على حصير سعفي مستطيل، مرقت على يمينه وعلى شماله كتباً صفراء، ظهر لي عنوان الأول منها الذي كان يعلوها، عُنون بعنوان، **اسم الله الأعظم لعبد الفتاح الطوخي الفلكي**، كانت بإزائها لجهة اليمين، دواة وقلم قصب، وأوراق صفراء مصفّفة على قدر واحد من التصفيف، كما كانت هناك كتب أخرى لجهة الشمال من تلك الكتب، تبيّن لي الأعلى منها كذلك، وهو **تذكرة الألباب في العجب العجاب لداود الأنطاكي**، وضعت إلى جانبها هي الأخرى، عقاقير وأبخرة مع بخارها الطيني.

ولما أكمل تمتمته وهمهمته، رفع فيّ رأسه، فتفرّس وجهي بتمهل واتقان، وقال لي:

ما حاجتك يا لمْرابط؟

تلعثمت بادئ الأمر في الكلام، ولكن سرعان ما انحلّت عقدتي بلطيف كلامه وتبسمه.

فاسترسلت في قصّ قصتي عليه بروية:

لقد أحببت فتاة من قبيلتنا، حباً كاد أن يصل بي إلى الجنون، وفاتحتها بحبي وإخلاصي لها؛ لكنها أبتْ وقفلت قلبها بمفتاح، ذهب سرّ مكانه مع رجل دفن معه في قبره.

قاطع كلامي بتبسم ضاحك، وقال لي:

ما علمت بقصص الحبّ في قصرنا، غير قصة مَروشَة مع الشلاَّلي. فأجبته بالسريعة:

تا الله يا سيدي.

فرك أرنبة أنفه قليلاً بسبابته، وقال لي:

ما اِسمها؟

قلت:

أميْزار

عندها هزّ رأسه، وتبسم بينه وبين نفسه، وتابعني في السؤال:

وما اِسم أمها؟

قلت:

منوبية.

ثم سألني بعدها:

قلت لي أن اِسمك لمرابط.

وما اِسم أمك.

قلت:

لالّة خرص الميّة.

عندها عدّل من جلسته، فمدّ ساقه ثم أعاده إلى طويته الأولى، وقال لي:

القضية فيها الطالب والمطلوب، والحاجة بينهما.

فتناول كتاباً أصفراً من تلك الكتب، التي كانت على يمينه ففتحها، وقلّب أوراقها تقليباً كثيراً، عنّ لي من ذلك التقليب جداول، وحروف ملتصقة، ورموز رأيتها.

بعدها قال لي:

قضيتك تصلح لها طريقة الكسر عندنا، ولا تصلح لها طريقتا الروح والمزج.

كانت مصطلحات الكسر والروح والمزج، مستغلقة عندي غير مفهومة، ويعلم الله، أني أول مرّة أسمع بها، فتشجّعت، وقلت له مستفهماً:

لم أفهم طريقة الكسر، ولا طريقة الروح، ولا طريقة المزج.

فتبسّم لسؤالي المستفهم:

وقال لي:

طريقة الروح يا ولدي، تعتمد على الأدعية والتعويذات دون الحجابات، أما طريقة المزج، فهي المزج بين طريقة الروح والكسر.

وقد رأيت فيما رأيت، أن طريقة الكسر هي المناسبة لقضيتك مع أميْزار، فتعتمد هذه الطريقة يا لمُرابط، على كسر الطالب والمطلوب والحاجة بينهما، إلى سطور ثلاثة:

سطر الأصل

وسطر الكسر

وسطر الزمام

وأن أهم جزئية من طريقة الكسر، هي طريقة الحجاب أو الحرز، وفيه الهوائي، والترابي، والناري، والمائي.

كما أن طريقة الكسر تعتمد على دراسة كافية لحمّارة الحساب الأبجدي، تستخدم في جداول، بها مقدمة، وصدر، وخاتمة، يُعرف بعضها بالخماسي، وبعضها بالسداسي.

وبما أن قضيتك هي قضية غرام وحب قلبي، فطبعها ناري، ويصلح لها الحرز المائي؛ لأن الماء ضد النار.

قرّب من نفسه الدواة وقلم القصب، واستلّ ورقة صفراء، من تلك الأوراق الصفراء التي كانت بجانبه، وكتب لي كتابة، وسطّر جداول، بها حروف أبجدية ملتصقة، وطلب مني أن أحتفظ بالحرز، حتى تأتي أميْزار من تونس لقصرنا، فاغسل كتابته في الماء، وقم برشه في طريقها، عندها تقضي حاجتك من قلبها.

بعدها طلب مني أن أمدّ إليه كفي الأيمن، ففحص خطوطه الثلاثة، الخط الذي هو في الأعلى، وهو خط الرأس، ولم يتمهل فيه كثيراً، حاله كحال الخط الذي هو الأسفل، المسمّى بخط الروح، أما الخط الذي هو في الوسط، والمسمّى بخط القلب، فقد بقي يفحصه ويتأمله مدّة كبيرة، حتى عرفت أنه المقصود عنده.

الزقاق الثالث عشر من قصبة القصر الطيني

بدأ جليد العداوة يذوب بيني وبين الداعلي شيئاً فشيئاً، نظراً لتأثري بالأفكار الاشتراكية الشيوعية، لما تنكره لفكرة الإقطاع، حتى غدا ماركس قدوتي، كما أنّ تخلي الداعلي و والده عن **سبختنا لكبيرة**، بعدما شعرا بالذنب والاغتصاب، كل ذلك ساهم في عودة المياه إلى مجاريها السابقة، بيني وبينه.

تأخرّت أنا والداعلي قليلاً، خلال السنة الرابعة والأخيرة بالعاصمة، مقارنة بالسنوات الثلاث الماضية، وذلك بغرض حصولنا على شهاداتنا، واستفاء الاجراءات الإدارية اللاّزمة لذلك، وأخيراً بلغنا وطرنا، نلتُ أنا شهادة الليسانس في التاريخ، ونال هو شهادة الليسانس في الحقوق.

غادرنا ساحة أول ماي مغرباً، مودعين العاصمة، وسنواتها الأربع، التي شربنا فيها الحلو، ولعقنا فيها المر، وتعلّمنا فيها فنوناً شتى من صنوف العلم، وفنون الصعلكة، قلت في نفسي ساعة ركوبنا في الحافلة، وأنا أعدّل جلوسي على مقعدي رقم 20 من الحافلة المتجهة نحو غرداية:

كم أنتِ جميلة يا بلاد سيدي عبد الرحمان[178]

يدخلكِ الداخل فيكِ صغيراً ويخرج منكِ كبيراً

وفوق كل هذا، دخلتكِ مع الداعلي أعداء، وخرجنا أصدقاء...

كان ساعتها سائق الحافلة، قد أعطى الإشارة لغلق الأبواب، لنباشر سفرنا نحو غرداية، ومن ثمة نحو أدرار الحبيبة، سيستمر سفرنا ليلاً كاملاً لنصبح في غرداية، ومنها نأخذ الحافلة مساء لتقلنا إلى أدرار.

وصلنا صباح اليوم الموالي إلى مدينة غرداية، فتوقفنا بها توقفاً اضطرارياً، ولما كان الحال من العشية، تعاورت علينا حافلة أخرى لنقل المسافرين باتجاه أدرار، لكنها كانت تشكو من إعاقة ما، ما جعلنا نتأخر كثيراً في الطريق.

كانت الأفكار التنويرية التي تشبّعت بها بالعاصمة، تجعلني لا أنكر على الداعلي، شعوره بالذاتية والاستقلالية والحق في التملك، كما أن إطلاع الداعلي على الحقوق، بما فيها حقوق الإنسان، زادته وعياً وإدراكاً لواقعه، وواقع والده أمبارك، وأمه قامو.

---

[178]- الشيخ سيدي عبد الرحمان الثعالبي.

لم تكن بيننا عقدة في مناقشة القضايا الحسّاسة، حتى تلك الأخطر منها، والمتعلقة بمسألة العلاقة بين السيّد والخادم. هي قضية واضحة، يدركها الكبار من الأعيان، كما يدرها الكهول والشباب، والأطفال، والنساء، غير أن مناقشتها، كانت من الطابوهات المحظورة.

كانت عودتنا بعد تخرّجنا من الجامعة في هذا الصيف، مكشفة لنا عن عديد التغيرات والتحولات الاجتماعية، التي شهدها القصر وقصور خط جريد توات كاملة، إذ أرسلت البلدية بمعية المصالح الفلاحية، إلى علم كافة المواطنين بيضاً وسوداً، أنها سوف توّزع مساحات فلاحية خاصة باستصلاح الأراضي، وذلك من الناحية الشرقية بسطح عزّي من خط الجريد.

لم يكن الأسياد والأعيان من الإقطاعين بحاجة إلى تلك الاستصلاحات في الحقيقة، ما وجد فيها الداعلي، فرصة للحصول على قطعة فلاحية دون عناء أو زحام، تطرد عنه الغبن، وتفكّ عنه عقدة الخادم الذي لا يملك، فشجّع والده أمبارك لأن يستخرج الوثائق من البلدية، قصد إيداع ملفه مع الوادعين، وبالرغم من عدم اقتناعه بالفكرة أولاً، إلا أنه أخيراً اقتنع، ومهما يكن فهو على أية حال، يفي بالغرض لشحذ الهمّة، ومغادرة القصر باتجاه البلدية، قصد استخراج الوثائق الضرورية لإيداع ملفه، للحصول على تمليك لقطعة أرض.

مع توزيع المستصلحات الفلاحية، على الطالبين والراغبين، بمن فيهم أمبارك والد الداعلي، بدا وكأن السباخ والفقاقير، تفطنتْ لسحب السجاد من تحت أرجلها، وأضحتْ الاستصلاحات ضرّة لها، فما كان ينفقه أمبارك وأترابه من جهدهم وعرقهم فريضة وواجباً للسباخ والفقاقير، أصبح نافلة.

بدأت علاقة عائلة الداعلي بعائلتنا عموماً تتناقص، بما يشبه نوعاً من الاستقلالية، لكن ظلّ ذلك الارتباط الصوري بيننا، بما يؤمن للداعلي ووالده، تأمين شراء قطعة أرض لبناء منزل مستقل، فهو مؤمن أشدّ الإيمان، أنه بعد شهر، سوف يتحصل على وظيفة قارة، فهو مخيّر بين أن يكون قاضياً، أو إطاراً في الإدارة، ودخله سوف يكون وفيراً، بما يسمح له ببناء مسكن طيني بالقصر. أما أنا فالتحقت بثانوية أدرار، لأكون أستاذاً للتاريخ.

كان لا يمرّ عليّ درس من الدروس، دون ألا أذكر لطلبتي أستاذي جاسم العراقي، وقد ذهب بيّ الاعجاب، إلى أن قلّدته في خطواته عبر صفوف القسم، وفي طريقة شرحه، واستدلالاته، وربط السبب بالمسبب، ووضع النتائج، وبناء الخاص على العام.

لم يغب عن ذهني، رغم هذه التحولات، التي شهدها بيتنا، وقصرنا، وسباخنا، وفقاقيرنا، وما استحدث من استصلاحات وتمليكات جديدة، خرقت ولأول مرة، بعد تجربة الثورة الزراعية، تلك الصورة النمطية للملكية بأعرافنا، فإن ذلك لم ينسِني حبي وشغفي وانتظاري بحرزي، لمجيء أميْزار للقصر، وإجراء طقوس أيْقشَ على آثار مشيتها، علّها تسقط صريعة بين أقدامي، وأمرّغ جبروتها، وكبريائها في تراب الزيوان. وإن كان اتساع دائرة ثقافتي، وازدياد تنويري العلمي، أصبح الآن يقلّل من إيماني بحجاب وحرز الطالب أيْقشَ، فاهتديت أخيراً إلى أمر صائب، يريح ضميري التثاقفي، ويبرد حرارة جمرة صبابتي.

فقلت في نفسي:

سوف استعرض أولاً ثقافتي، وشهادتي، ومنصبي على أميْزار، فإن هي آمنت، فذاك ما أبغي، وإن لم تؤمن فإن آخر الدواء الكي، وكما قلت، وأقول دائماً، أن صاحب الحاجة أعمى و لا يريد إلا قضاءها، فثمة قول، وفعل، ورش، لحرز الطالب أيْقشَ.

كان آخر عهد لي بأميْزار، هو رسالتها القاتلة والصادمة في آخر يوم من شهر أوت من السنة الماضية.

ليس لي من حلّ دون الصبر، ولا سبيل سوى الانتظار، حتى تعود مع والدها، ويعلم الله أني بقيت شهوراً أنتظر خبراً يعجّل بمجيئها، حتى كان خريف ذات سنة من بداية الثمانينيات، حين عاد والدها رفقة زوجته، ودون أميْزار، لم يكن الأمر مصدّقاً عندي بشكل سريع، فقد ذهبت أحلامي، وانتظارات صبري وجلدي، أدراج رياح أريفي[179] الصاهدة، ودفنتُ وجهي في التراب، فأصبت بإحباط، أكثر ما بلغني منها ساعة قراءتي لردها الشامت في آخر رسالة لها لي، من أواخر ذلك الشهر المشؤوم من العام الماضي.

---

[179]- هواء ساخن يهب على توات في الصيف، قادماً إليها من جراء سقوط المطر ببلاد السودان.

كما كان الخبر ونزوله عليّ وخيماً، كان الأمر كذلك على عمّتي نفوسة، حيث باءت وصفتها بالفشل.

لم يسمح لي حزني وانطوائي الشديد، لأن أزور الغيواني في بيته مع زوجته، وأسلِّم عليه، حاولت أن أتشجع بكل ما أوتيت من قوة، لكنّي فشلت نهاية الأمر، فقد كنت متيقناً بأن عمّتي سوف تهتم بالأمر أكثر مني، وتأتيني بالخبر اليقين، عن سبب عدم مجيء أميْزار.

كنت أنتظر رجوع عمّتي نفوسة على أحرّ من الجمر، علّني أعرف سبب عدم مجيء أميْزار، بعدها جاءت عمّتي، وكأني بها تعلم ما بي من سبب الانتظار، وكلّها فرح وابتهاج، عكس ما قدّرت في تقديري الخاطئ، فقالت لي:

إن ابن عمك الغيواني يسلِّم عليك مع زوجته، وقد قال لي، أن سبب عدم مجيء أميْزار، هو طارئ حادث، وقد كانت تنوي المجيء معهم، لكن معهد الآثار الذي تدرس فيه، قد نظّم لمنتسبيه، رحلة إلى العراق، لزيارة حضارة بابل، وها هي رسالة قد أرسلتها لك مع والدها.

تلقفت الرسالة من أصابع عمّتي، كتلقف الظامئ العطشان من أرض القفار للماء بصحراء تنزروفت[180].

تساءلت لحظة تلقفي للرسالة، وقلت في نفسي:

أتكون رسالتها سلبية مخزية كسابقتها؟

وبالمقابل سألت نفسي مرة أخرى:

أتكون رسالتها إيجابية، وفيها رسول أمل لأحلامي الوردية؟

أتكون قد تراجعت عن ردّها الأول، بعدما علمت أنّي أستاذ التاريخ بالثانوية؟

المهم فتحت الرسالة بتعجل سريع، دون أن أتحسس بحاسة أنفي، ما يكون قد علق بها، أو بقيّ على سطحها من عطرها كما كنت أفعل سابقاً، لكون المشهد ساعتها كان مثيراً، وأخيراً وجدت أميزار تقول في رسالتها:

---

[180]- صحراء حمادة، بين رقان وبرج باجي المختار.

إلى ابن عمنا الزيواني التواتي بالقصر الوسطاني.

علّمتني الحضارة والثقافة في تونس، أننا نعتذر لمن أخطأنا في حقه يوماً، أعتقد أني بذلك الرّد البربري...، الذي رددت به عليكم، أنّي استحق كل علامات العار وبكل اللّغات واللّهجات، أبارك لكم تخرّجكم من الجامعة، كما اهنئكم على وظيفتكم النبيلة، كأستاذ التاريخ في الثانوي، ما يمكنني قوله لك أن تقاربنا في التخصص، وهو مزاوجة التاريخ بعلم الآثار، قد يفتح الأمل واسعاً مستقبلاً، في علاقة هي اسمى...، كما أنّ اطلاعي على حضارة وأثار مملكة الزيوان، جعلتني أطمس تلك الصورة النمطية عن قصري وأصلي، أخيراً اعتذر لكم لعدم مجيئي، لطارئ طرأ، حال دون لقائنا، وأعدك أنّي سوف أقوم بزيارة خاصة خلال عطلة الشتاء، تقبل تحياتي.

أميزار

تونس: 02/10/198

سوف يكون ضميري مرتاحاً إذاً، ولم تعد الحاجة ماسة لجداول أيْقشَ، لقد كفتني بالفعل ثقافتي، وشهادتي، ومنصبي النبيل، مؤنة واستعطاف قلب أميْزار.

كانت أسارير وجهي المحمرّة، بالبهجة والفرحة العارمة التي تغمرني، تلقى استفهاماً مستغلقاً من عمّتي، والتي تسمّرت أمامي مندهشة للرسالة وما تحتويه.

فقالت لي عمّتي في دهشة ترجو بهجة:

يبدو أن حرز أيْقشَ قد فعل فعلته في أميْزار، وجعلتك تبدو مسروراً.

قاطعتها، وقلت لها:

إنما الذي شفع لي في حب أميْزار، هو ثقافتي وشهادتي ومنصبي يا عمّتي، أما جداول أيْقشَ، فلم استعملها بعد، واستعمالها كما تعلمين، مرهون برش آثار أقدامها، وهي لم تأتِ أصلاً، كل الذي يهمني هو قلب أميْزار، وقد ظفرت به.

تركت عمّتي، وما وجدتني إلا وأنا بعتبة الغيواني، كان تقديره وتبجيله لي في هذه المرة، أكثر ما كان عليه في سنواته الماضية، حتى زوجته هي الأخرى أظهرت لي عناية غير معهودة في سابق عهدها.

لم يدم مكوث الغيواني بيننا كثيراً خلال هذه المرة، فقد مكث بين ظهراننا مدة عشرة أيام، ولما كان اليوم الأخير من ذهابه وعودته إلى تونس، سلّمته رسالة لابنته أميْزار، جاء فيها:

من أرض الزيوان والغيوان

مع كل قافلة من قوافل التجار التي مرّت بمملكتنا، مع كل حمام زرق الريش والجنحاني، برفرفة سعفة النخيل، وبنعومة حبّة الرمل الصفراء، أكتب إليك، هذه السطور، المخضّبة بطين أرض الأجداد، وباعتذارك تكوني قد غسلت ما وقع بيننا سلفاً بصابون الاعتذار.

ابن عمك لمرابط

مشروع المؤرخ بالقصر الوسطاني

توات يوم: 12/10/1982.

كان والدي قد أنهى تجارته لبلاد السودان نهائياً خلال الصيف الماضي، ما جعله يدخل معه في آخر دخوله سيارة 504بيجو سياحية بيضاء جديدة من نيجيريا، وقد وافق سفر الغيواني، رجوعي للعمل بأدرار، فأوصلنا أبي لأدرار، أنا مع أبي في المقاعد الأمامية، والغيواني مع زوجته منوبية في المقاعد الخلفية.

وصلنا أدرار ضحوة ذلك اليوم، واقترح والدي على الغيواني، أن نقيّل عند أحد أحبابه الأثرياء الكرماء من قبيلة الشعانبة، الذين قد عرفهم خلال طريق تجارته لبلاد السودان.

كانت المسافة المتوسطة الممتدة بين قصرنا الوسطاني وأدرار، مناسبة لمناقشة موضوع خطبتي وزواجي بأميْزار، فبادر والدي بمفاتحة الغيواني وزوجته في الموضوع، فبدأ له الموضوع بمثل شعبي يُقال ويُشاع عندنا كثيراً:

(أدقيقنا في أرقعتنا[181] يا الغيواني)

ففهم الغيواني مقصود والدي؛ لكن منوبية استغلق عليها فهم المثل المحلي، فقالت لزوجها:

الدقيق مفهوم؛ لكن الرَّقعة غير مفهومة.

فتبسم الغيواني، بعد أن عدّل طاقيته التونسية الحمراء، التي تعتمر رأسه، وقال لها مبتسماً:

محصول قوله، أنه يريد أميْزار لِابنه لمْرابط.

والقول قولكِ، وأنتِ صاحبة القول فيه.

سكتت منوبية مدّة، وقالت:

ربي يعمل ما فيه الخير...

كان جواب منوبية قابلاً للتأويل، ويحمل على محملين، القبول والرفض معاً، وقد كان تغليبي للإيجاب أكبر، لكونها كانت تختلف عما تناهى إلى أسماعنا من أمر التونسيات، أن بورقيبة أعطى لهن من الحرية والتصرف، ما يجعل الرجل رهين تصرّفها وأمرها، وقد كانت منوبية غير ذلك.

المهم توادعنا مع الغيواني وزوجته، فقفل والدي راجعاً لقصرنا الوسطاني، وهممت أنا بحمل محفظتي والتوجه نحو الثانوية، فقد كانت ساعتها الثانية زوالاً، وعندي في المساء، حصة مع طلبة الثالثة، حول أثار القنبلة النووية على رقان ومملكة الزيوان.

---

[181]- القافات الثلاثة في المثل تنطق جيماً قاهرية، ومعنى الرقعة هنا، هي جلد الغنم المدبوغ، الذي تتوسطه الرحى لطحن القمح، فيزل فيها الدقيق المطحون من جوانب الرحى في الرقعة، والرحى تكون فيها ضلفتين، واحدة سفلية، والأخرى علوية، فيها ثقبان، الأول دانبي لوضع المقبض المدعو محلياً بالشضاض، والثاني يتوسط الضلفة العلوية، حيث يوضع منه القمح أثناء الطحين..

ظلّت علاقتي بالداعلي أخوية، بالرغم من التطورات الحاصلة على مستوى الأسرة، ومطالبته بالاستقلالية والملكية، فكنا نلتقي بين الحين والآخر بأحد مقاهي مدينة أدرار، بحكم أنه أصبح موظفاً وإطاراً بمكتب الضرائب، وكنا نتجاذب أطراف الحديث حول التطورات والتحولات الاجتماعية، التي شهدها قصرنا الوسطاني، بل ومنطقة خط جريد توات قاطبة.

فقد صرّحت لأكثر من مرّة للداعلي، من أن الإنسان كونه كوني قيمي، من حقه أن يعيش كريماً عزيزاً، دون مهانة أو مذلّة، وأن من حقه أن يعيش مستقلاً بذاته، وأن يشبع غريزته من حبِّ التملُّك، شريطة ألا أن ينهض للقضية بفعل عرقي، أو عنصري، أو من باب الثأر وانتهى.

في الوقت الذي كان فيه الداعلي منشغلاً ببناء بيتهم الطيني الجديد بالقصر، وكذا استصلاح الأرض الفلاحية، التي منحتها الدولة لوالده بسطح عزّي، شرق القصر الوسطاني، كانت فَقَاقير القصر، قد بدأت عيونها المائية في الغور، ما جعل منسوب الماء فيها يتناقص بشكل لافت.

فأعيان الملاّكين الإقطاعيين، قد خرجوا حينها من الكهولة، ودخلوا في الشيخوخة، ولم يعد بوسعهم، مقاومة أشغال الصيانة التي تطلبها الفقاقير كل سنة، للحفاظ على منسوبها المائي، كما أن أبناءهم، لم يتربوا على تلك الأعمال الشاقة، سواء في خدمة الفقاقير، أو خدمة السباخ والبساتين، فضلاً على أن أعداداً غفيرة منهم، فضّلوا العمل في الوظيفة الحكومية، إما كعمال غير مؤهلين، أو كموظفين مهرة، ممن سمحت لهم الظروف بمزاولة الدراسة كحالتي.

مرَّ عليَّ شهرا أكتوبر ونوفمبر ، بين خفة وثقل، كانت تأتيني الخفة فيهما، من مباشرة عملي الجديد، وكذا الاستقلالية المالية، التي أصبحتُ أتمتع بها، كما كان الثقل يباشرني فيها، لاستثقالي واستعجالي لقدوم أميْزار عند حلول العطلة الشتوية في ديسمبر، كما واعدتني في رسالتها الأخيرة.

انهيت امتحانات الفصل الأول، ورصد نقاطها في كشوف التلاميذ، بكل روية وأناة، حتى كان الأمر من نهاية الشهر.

جاءت أميْزار كما وعدتْ، رفقة عائلة تواتية مغتربة بتونس، واستقبلها والدي أولاً، لأنّي كنت مشغولاً بالثانوية في اليوم الأخير، قبل العطلة، ومرّا عليّ بالثانوية، عند الساعة منتصف النهار، فسرّها من أناقة ملبسي، وتأنق مظهري، ما جعلها تحتضنني احتضاناً دافئاً، سكرتُ بنشوته وعبق عطره...، حتى كدت أسقط مغشياً عليّ، لولا همهمة ونحنحة والدي، التي جاءتني كجرس يقرع فعلتي، وينبهني إلى حالتي، فتظاهرت بالبراءة والطهر، ما جعل والدي يتبسم تبسماً غير بريء. كما زاد سرورها وبهجتها، امتلاكنا للسيارة الجديدة البيضاء.

لقد كانت أميْزار ذكية وفطنة بشكل لا يصدق، فقد ابدت لي أنا ووالدي، بمجرد نزولها لمدينة أدرار، أن هناك تطوراً ملحوظاً في المجتمع، فقد شاهدت بأم عينها، أسراب الفتيات والتلميذات، يحملن محافظهن ويخرجن من بوابة الثانوية، عندها سألتني عن أختي مريْمو وقالت مستعطفة كالعادة:

لم تكن مريْمو محظوظة مع بنات جيلها في التعليم.

فقال لها والدي:

ذلك زمان وهذا زمان.

بعدها سألتني وقد رأيت علامات البؤس والانكسار في مقلتيها، وهي ترقُّ لحال أختي مريْمو وبوارها، فقالت:

أما زالت لم تُخطب وتتزوج؟

عندها زفر والدي زفرة ساخنة، وقال في مرارة:

أمريْمو جنى عليها الزمان، وتحبيس السباخ.

فقهقهت أميْزار قهقهة بريئة، لطّفت من حدّتها بوضع منديلها الوردي على فمها وقالت:

لقد ذكر لي والدي الغيواني، في مجيئه الأخير للقصر مع والدتي، أن الفقاقير بدأ رسول الغور فيها يؤذن، وأن السباخ بدأت هي الأخرى في الشكوى والاستغاثة من بلوى البوار والبور، وأن هذا الذي حبّسه الأجداد، ودفعت أمريْمو ثمنه، قد بدأ نجمه في الأفل.

قطعنا الطريق ولا نعلم له بعداً، لسخونة الحديث عن مقاربة الأمس باليوم، وكذا تراجيديا قصة أختي مريْمو. وصلنا القصر بعد ساعة وربع الساعة، نزلنا من السيارة، وحملت معها حقائبها، حتى بلغنا قنطرة القصبة، فوجدنا عمّتي نفوسة جالسة، تحمل في يدها عكازاً، كانت تستعين به على المشي، بعدما أعياها الخناس... والكِبر، وبدأت عيناها الغائرتان أصلاً تزدادان غوراً واحتجاباً في الرؤية، فوقفنا أمامها، فوضعت يدها على جبهتها، وقطّبت عينيها في أميْزار جيداً، فعرفتها أخيراً، وتعانقت معها عناقاً طويلاً، حتى مللنا من الوقوف أنا و والدي.

عبرنا باب القصبة، وقطعنا زقاق أسَرْداير المار بالقصبة من الداخل، حتى بلغنا بيتنا، وما إن تخطينا عتبة البيت مارين بسقيفة الباب، حتى قامت أمي تنفض عباءتها من قرب الموقد الغازي، الذي كانت تحضّر عليه قدر الغذاء، فتعانقت معها هي الأخرى، لكن ليس بذلك العناق المبالغ فيه كعناق عمتي عند قنطرة القصبة، بعدها تعانقت مع أختي مريْمو عناقاً استعطافياً، حتى انهمرت الدموع من على خدي أميْزار.

فرّشت لها أمي فراش حنبل بُورابَح، وقد كان هذا الفراش مدسوساً، لا يخرج ولا يفرّش إلا للضيوف النادرين والمحظوظين، كان والدي قد اشتراه مقايضة بالحنّاء، من بني حميان المغلاويين، الذين كانوا يأتون لمملكتنا أيام زمان. جلست أميْزار على الفراش، وجلست على يمينها أمي، وعلى شمالها عمّتي نفوسة، وجلس أبي غير بعيد عنهن متكئاً على وسادة، بينما أختي مريْمو، انشغلت بإعداد الكسكس. تناولنا قصعتنا من الكسكس الممرق باللّحم، بعدها تناول أبي صينية الشاي، وبدأ بطقوس إعداد الشاي.

لم يكن بخاف على أميْزار كذلك، وبما وُهبت من يقظة، أن يغب عن ملاحظاتها غياب قامو عن البيت، وكذا طهي الغذاء كالعادة، كما كان إعداد أبي لطقوس الشاي لوحده، دون وجود أو إعداد من أمبارك، هو الآخر مقوياً لها في الاستغراب والتساؤل.

الزقاق الرابع عشر من قصبة القصر الطيني

لم يدم مكوث أميْزار بيننا طويلاً، لكنها علمت بمكانة الداعلي، عن طريق جداول الطالب إقشَ، وكيف أنه أصبح مديرا للضرائب وجيها، يركع عند قدميه كل التجّار، و يغدقون عليه بالأموال والعطايا، قصد محو ديون ضرائبهم، بمن فيهم الأسياد القدامى، أكثر مما يملكه أستاذا ثانويا في التاريخ مثلي؛ لكنها كتمت ذلك عني، ولم أفق من غفوتي إلا بعد جنوني. ففي يوم ذهابها حضرت قامو لزيارة مجاملة قصد توديع أميْزار، فبالرغم من ذلك الاستقلال الناشئ، إلا أنها ظلّت وفية لأمي، التي ثابت إلى صداقتها القديمة، بعدما حملتها الغيرة على سبختنا لكبيرة...، مع نشاز ظاهر مع عمّتي، التي لم تهضم التطورات الجديدة، التي حصلت جراء استقلال أمبارك وزوجته وابنه الداعلي، المهم توادعت أميْزار مع أمي أولاً، ثم توادعت مع أختي مريْمو المسكينة، وأخيراً مع قامو، التي ستصبح صهرتها في مالم أعلم به...

الداعلي لم يعد يزور عتبتنا، إلا لماماً خفيفاً، كأيام الأعياد والمناسبات، فهو مشغول بين وظيفته كإطار في إدارة الضرائب، وبين توفير المواد قصد الانتهاء بسرعة من مسكنهم الجديد.

وصلنا صباحاً لمدينة أدرار، وقد كان يومها الأربعاء، وليس في استعمال زمني التوقيتي الأسبوعي عمل في هذا اليوم، وأميْزار سوف تذهب حتى العصر، وهي فرصة مناسبة للتجول رفقة أميْزار بمدينة أدرار، بيد أن أبي قد تفطن لأمري...، ما جعله يعود للقصر في ذلك الصباح، وكلفني بالحجز لها بمحطة المسافرين.

تحررت من عقدي وعقداتي التي تتلبسني في القصر، ولم تعد سقوفه وجدرانه المطلة وعيون ساكنيه، تحاصرني في ملاقاتي بأميْزار، وجدت في تجول مدينة أدرار، فضاء خصباً لاستعراض عضلاتي، جيبي ممتلئ فضة ودراهم، كنت أعرف أن أميْزار، بحكم ثقافتها للآثار والفنون، مفتونة بحب التحف والهدايا التقليدية، فاقتنيت لها من محال بيع التحف هدايا تقليدية، تعكس ثقافة وحضارة أهل الزيوان، فسُرّت سروراً مغبطاً، جعلتها تلبّسني من رأسي حتى أخمص قدمي بآيات الثناء والإعجاب المفبرك، والحق يذكر أني كنت ساذجا أكثر مما سبق، كانت تبطن فيها كلمات من قاموس الحب المتهكم، ما جعلني أبتعد من قلبها، فقالت لي بسخرية:

علم التاريخ والآثار، وجهان لعملة واحدة؛ لكن إدارة الضرائب قلبت السيّد عبدا والعبد سيّدا....

أحسست بزلزال تحت قدماي، وكأني لا أصدق القول و المشهد، لكني تجاهلت ذلك عامدا....

علمت بعد هذا أن الطالب إقشَ نفسه، قد تورّط في خلخلة عقل إمزار، وتغيير قرارها، وتخلّيها عني، فقد أغدق عليه الداعلي غدقا كبيرا من المال، جعله رهن إشارته.....

لم يكن للداعلي من قصد، سوى الانتقام المفاجيء مني، لكن المال و النفوذ و ركعة الأسياد التجار له، جعله يتمكن من قلب إميزار عن طريق الطالب إقشَ، وينسف ما بنيته خلال ثلاثين سنة.

بينما أنا مع أميزار، مع إحساسي ببرودتها نحوي، نجهز أنفسنا للذهاب لمحطة المسافرين، قصد تشييعها بمدينة أدرار، أمام باب أحد التجار الشعانبة الذين يعرفهم أبي، إذْ وقفت أمامنا سيارة مرسيدس، يركبها الداعلي، وما إن توقفت قبالتنا، حتى توجهت نحوها وفتحت الباب الأمامي الأيسر، و انطلق الداعلي بها مخلفا خلفه غبارا، نسف فيه آمالي و عشقي....

ساء حالي، أكثر مما كان يسوء حالة عمتي من جنون، وسقطت مغشيا عليّ، ولا أعلم من أمري، سوى أني صرت مجنونا بالقصر، فتوسّل أهلي للطالب إقشَ، فأبى و تمنّع بفعل ما أوصاه الداعلي من غدقه بالمال.

لم يكن من سبيل أمامي أخيرا سوى حفرة الرابطة خارج القصر، إنها بداية العشق...و نهاية الجنون....

الدكتور الصديق حاج أحمد الزيواني أكاديمي وروائي جزائري مولود في 19 ديسمبر 1967 بزاوية الشيخ المغيلي ولاية أدرار، أستاذ لسانيات النص بجامعة أدرار، مهتم بالدراسات اللسانية والأدبية وكذا التاريخية الأنثربولوجية، من أعماله السابقة : التاريخ الثقافي لإقليم توات. الشيخ محمد بن بادي الكنتي - حياته وآثاره. الدرس اللغوي بتوات.

يبدو نص مملكة الزيوان، حكاية توات قبل أن تغتسل من طينها، للصديق حاج أحمد، بمثابة تجربة جديدة تخص ذاكرة الرمل الجليل الذي يقطن في جنوبنا منذ فجر الخلائق. وقد يحتاج هذا الكائن المنسي هناك، محتفظا بآلاف الحكايات مثل الجدات القديمات، إلى رعاية تليق بمقامه لأنه أحد الجواهر الخالدة، كالنواة والحركة. ويأتي اهتمام الكاتب به في سياق أدبي يجعله من النصوص السردية الأولى التي تيمم من عمق الصحراء شطر المتخيل والاستعارة حاملة ألوانها الخاصة ومحنتها. هناك دائما أشياء يقولها الرمل في وقاره وهيبته، كلمة ما أو علامة أو صمتا مديدا وفراغا. لكنه لا يسكت إذ يصمت، يغفو قليلا كالحكماء وينسج مواويله الذاهبة إلى جهة ما، إلى الذات وإلى السماء. وقد قال المتخيل في هذا النسيج، كما الواقع، ما لم تقله لغة نصوص أخرى بسبب ضغط مرجعيتها المكانية وحمولتها. مملكة الزيوان هي جزء من هذا، تجربة من مدينة أدرار تنزع إلى الاهتمام الشديد بخصوصية المكان والمعجم والمعنى وبعض العادات، وبحكايات تحتية لا يمكن أن تزهر إلا هناك، بعيدا عن صخب المدن التي فقدت ملامحها. يجب أن ننتبه إلى نبوَة الرمل الجالس بوقار قرب العدم. ربما كان هذا الجهد استباقا غاية في الأهمية، تمهيدا ضروريا سيضيء درب القادمين إلى ممالك العلامة، من مملكة الزيوان ومن الجهات الأخرى التي تقع جهة العين العمياء، كما يقول الأجداد.

- السعيد بوطاجين.

ISBN 978-9947-975-49-7

9 789947 975497

صدر هذا الكتاب بدعم من دار الثقافة لولاية أدرار